الميزاب الذهبي

ALTINOLUK

بنور الخير

مجلة تصدر كل شهرين-العدد السابع عشر(تشرين الثاني - كانون الأول ٢٠١٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة القرآء:

إنّ أعظم الأصول في دين الإسلام تحقيق الإخلاص لله تعالى في كل العبادات وكل الطاعات، والابتعاد عما يضاد الإخلاص وينافيه من الرياء والسمعة والعجب والتكبر والغرور والإدلال بالعمل؛ ولهذا كانت الحاجة إلى معرفة هذا الأصل العظيم والتفكر فيه من أجَلِّ المطالب، وأعلى المقاصد.

والإخلاص من أعظم أعمال القلوب، وهو الذي يراد به وجه الله-تعالى- لا غيره. ولذلك لم يكن الإخلاص والبعد عن الرياء بالسهل على النفس، إنما هو من أصعب الأعمال وأشقها على النفس، ويحتاج إلى مجاهدة ومحاسبة.

فالإخلاص سبب في قبول الأعمال من الله تعالى، فلا يقبلُ الله تعالى الأعمال التي يشتركُ فيها غيرهُ رياءً لهُم أو ابتغاءً للسُمعة، فالله جلّ جلاله أغنى الأغنياء عن الشرك. من مخاطر عدم وجود الإخلاص أن العمل يُحبطه الله، كما أنَّ الشخص الذي لا يُخلِصُ العمل لله قد يدخلُ في بابٍ من أبواب الشرك والعياذ بالله.

والمُخلص لله في عبادته هوَ شخصٌ يأمل في ما عند الله تعالى من الثواب، ويخاف من عِقابه جلّ جلاله، فقد قالَ الله تعالى :

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠)

وعلى قدر إخلاص العبد لربّه يكونُ العمل مقبولاً عندهُ جلّ جلاله، فقد قال الله تعالى:

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ (الحج: ٣٧)

نسأل الله العلي القدير أن يرزقنا الإخلاص، وأن يوفقنا لطاعته، ويجنبنا الرياء، إنه على كل شيءٍ قدير. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الميزاب الذهبي

مجلة تصدركل شهرين

العدد السلبع عشر

(تشرين الأول– كانون الأول ٢٠١٦)

رئيس التحرير

بيت اللهّ دميرجي اغلوا

مدير التحرير

حسام يوسف

هيئة التحرير

بيت اللهّ دميرجي اغلوا

حسام يوسف

آدم أزدمير

د. مراد قايا

التصحيح والتدقيق اللغوي

أ. حسن مرشد

أ. محمد عز الدين سيف

التصميم والتنضيد والاخراج الفني

حسام يوسف

إدارة المجلة.

Organize Sanayi

Bölgesi Turgut Özal Cad. No: 117/2-C

Başakşehir / İstanbul Tel:0090 212 671 07 00

دار النشر والطباعة

Erkam Matbaasi Organize Sanayi.

Bölgesi Turgut Özal Cad. No: 117/2-C

Başakşehir / İstanbul Tel:0090 212 671 07 00

الإشتراك

لكي تصلكم المجلة بشكل دوري

يمكنكم الإشتراك سنوياً بمبلغ ٣٠ دولار

كما يمكنكم المساهمة بإرسال المقالات والملاحظات على عناوين المجلة

للمراسلة

almizab2011@hotmail.com

almizab2011@gmail.com

المحتويات

امتحان الإخلاص

أحمد تاش كاتيران

الصد عن سبيل الله تعالى

إسماعيل لطفي جاكان

ثمن الجنة

الأستاذ: عثمان نوري طوبّاش

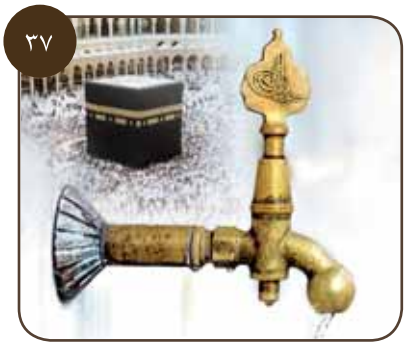

التطهير الإبراهيمي في الكعبة

أدهم جبهجي أوغلوا

كلمة التحرير	١	ثمن الجنة	٢٨
امتحان الإخلاص	٣	كيف تعرفون الرابطة؟	٣٤
الصد عن سبيل اللّه سبحانه وتعالى	٧	التطهير الإبراهيمي في الكعبة	٣٧
الإخلاص	١٠	جرح اللسان	٤٠
العفو المحمدي والأخوة اليوسفيَّة	١٣	أه أيها الإنسان!	٤٢
الحساب على النعم	١٦	الرؤيا، الإلهام، الكشف	٤٤
الآية المباركة التي تُعد خلاصة القرآن الكريم	١٨	طريق رفيع طويل	٤٨
الثبات على الدين	٢٠	إمكانية إدراك الحياة	٥٠
الهموم وأسبابها	٢٢	شُكر المنعم	٥٣
أولوياتنا وأدبياتنا في طريق رحلتنا	٢٦	زيد بن أرقم	٥٤

ملاحظة: المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾

امتحان الإخلاص

أحمد طاش غاتيـــران

ينبغي للمسلم عندما يُقدِم على أي عمل أن يتذكر دائماً قول رسول الله عليه الصلاة والسلام:

"إنما الأعمال بالنيات"

ذلك أن الحديث النبوي الشريف يُنبِّهنا إلى طريقة تدوين العمل الذي نقوم به في صحيفة أعمالنا، فمن المعلوم أن لكل إنسان صحيفة أعمال تُسجَّل فيها كل شاردة وواردة يقوم بها.

ويعلمنا هذا الحديث ضرورة الوعي بمسألة ذات أهمية عظيمة، ألا وهي: هل العمل الذي نقوم به له قيمة دينياً، وهل هو إيجابي لمستقبلنا أم أنه سلبي؟! إنه يحثنا على "سلامة النية". ثم يحدد مضمون "سلامة النية" بالعبارة اللاحقة حينما يؤسسها على "التوجه إلى الله ورسوله".

فالنص الكامل للحديث النبوي:

"إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه."

(البخاري: ١، ٥٠؛ مسلم: الإمارة، ١٥٥؛ رياض الصالحين: ١؛ الجامع الصغير: ١/ ١)

فالحديث النبوي في غاية الوضوح، وكأن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول:

تحقق من هجرتك ودقق النظر فيها؛ فهل أقدمت عليها من أجل الله ورسوله، أم من أجل امرأة تريد أن تتزوجها، أم من أجل أموال الدنيا؟ لأنك سوف تحصل على أجر ما عقدت النية عليه. فإن كنت

قد خرجت من أجل الحصول على امرأة أو على مال الدنيا، فلا تتظاهر بأن خروجك إنما كان في سبيل الله ورسوله، لأنك بذلك تخادع نفسك.

إن الحديث الشريف لا يقول لنا:

"لا يمكن الهجرة من أجل أموال الدنيا، أو الزواج بامرأة".

فمما لا شك فيه أن الإنسان يستطيع التحرك في هذه الدنيا من أجل الحصول على مثل هذه الأهداف والغايات الدنيوية، ولكنه لا يستطيع وضع إحدى هذه النيات محل الأخرى.

وقد تتداخل في بعض الأحوال الغايات الدنيوية مثل المال والنساء وغيرها مع "النية التي تكون في سبيل الله ورسوله".

ومثال ذلك: كسب المال لإنفاقه في سبيل الله، أو الزواج بامرأة من أجل المحافظة على سلامة الدين. ولربما يُعدُّ هذا الميدان من أكثر الميادين التي تتشابك وتتداخل فيها النيات، لأن "النية" تنعقد في القلب، وأحياناً قد لا تتوضح، أو قد تفضِّل نفوسنا تداخل النيات كي ترتاح.

وقول النبي عليه الصلاة والسلام:

"الدين النصيحة- أي الإخلاص-" يعدُّ تنبيهًا قويًّا لكل مؤمن، لأنه يجعل الآخرةَ أساسَ أعمال الإنسان في الدنيا.

فماذا تعني عبارة: "الدين النصيحة"؟ إنها تعني:

- لا تتلاعب بالدين.
- لا تتخذ الدين لهواً ولعباً.
- لا تجعل الدين أداة لتحقيق غاياتك الشخصية.
- لا تجعل هدفك إقناع نفسك، وإنما اجعل هدفك إقناع الله تعالى. فكِّرْ في نفسك متسائلاً: "هل يرضى الله تعالى عن عملي هذا؟"
- عندما تختار عملاً، اجعل نصب عينَيك "المسؤولية أمام الله تعالى"، بدلاً من اتباع الأهواء النفسية.
- اعمل على تصفية نيتك، وتطهيرها، ولا تفسدها، واعقد نيةً في قلبك من أجل كل عمل.

إن الإنسان يعيش في الدنيا، ومن الطبيعي أن يقوم بالأعمال الدنيوية، وهو عندما يفعل ذلك سوف يقوم بأداء كل شيءٍ بعقله، وقلبه، وجسمه.

إلا أن الدنيا "امتحان"؛ أي كأنها "مزرعة الحياة الأبدية". وهذا ما يجعل لكل عمل في الدنيا امتداداً في الآخرة، فيكون الإنسان معرضاً لخطر الخلط ما بين الدنيا والآخرة، فالعمل الذي يبدو في الظاهر من أجل الآخرة قد يكون الهدف منه أمراً دنيوياً. ويمكن أن يحدث العكس أيضاً، أي إن ما يبدو أنه من أجل الدنيا، قد يكون في الحقيقة من أجل الآخرة. إلا أن القرآن الكريم يشير إلى أن الإنسان يحمل طبيعة نفسية تجعله يميل إلى ترجيح "العاجلة" أي ما يراه حاضراً أمامه، على "الآجلة" أي ما يأتي فيما بعد، فقد تتغلب عليه هذه الطبيعة. وهنا يأتي دور امتحان الإخلاص.

ويرد التأكيد على الإخلاص في القرآن الكريم بصورة متكررة، كقوله تعالى:

﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾.

فهذا تنبيه ودعوة إلهية إلى إخلاص النية وتوجيهها في كل الأعمال إلى الله تعالى.

والأصل أن إخلاص الدين لله تعالى بصورة عامة هو ما يميز "الإيمان". أي إن كل من يخلص الدين لله تعالى مؤمنٌ، وأما من يتوجه بدينه إلى غيره تعالى فهو غير مؤمن.

إن توجيه التنبيه الإلهي: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ للمؤمن يوجِب علينا جعل الإخلاص غايتنا في سائر أعمالنا.

فأحياناً نُقدِم على سلوك "ديني" من حيث الشكل، ولكن قد لا تكون له قيمة من حيث المضمون، لفساد النية. وقد تؤثر النية في الإيمان، فمثلاً "الرياء" الذي يصاحب عملاً من الأعمال يجعل البعد الإيماني لهذا العمل موضع شك، أو ربما يبطله.

وقد تكون الآية القرآنية: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ دعوةً للإنسان إلى الحذر من فساد باطنه.

ولكي نفهم مدى الدقة في هذه المسألة؛ أي "الإخلاص" نتوقف عند التساؤل الآتي:

- لماذا يُفسِد الإنسانُ نيَّته؟

والإجابة تأتينا من أمور عدة منها:

- حساباته وأهواؤه النفسية.
- مخاوفه.
- حبه للأمور الدنيوية.

أجل، إن الإنسان يجمع في داخله كل هذه الحقائق ولا ينفك عن التعايش معها، والحياة الدنيا بالنسبة له كرحلة أو مغامرة يحاول فيها "عدم نسيان الله" أو "إيجاد سبيل إلى الله" من بين كل هذه الأمور. ولا بد أن هذا هو ثبات القلب من ناحية الإيمان الذي أشار القرآن إليه:

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

ويمكن القول: إن العمل الذي يفتقد الإخلاص كأنه غير موجود. والأمر نفسه بالنسبة للدين الخالي من الإخلاص بصورة عامة، إذ يُعد أجوفاً لا قيمة له.

وإذا قلنا بأن "الإنسان الذي اتخذ هواهُ إلهه" هو "الإنسان الذي أغفل الله تعالى وأخلص النية لهواه" ندرك جيداً مدى الخطر الذي نواجهه في حياتنا هذه.

إن سؤال: "كيف يُفسِد الإنسانُ نيَّته؟" مهم أهمية السؤال الذي ذكرناه: "لماذا يُفسِد الإنسان نيته؟" من حيث فهم ذلك التبدل في قلب الإنسان.

وإذا كان هذا التبدل في مسألة اختيار الإيمان، فإنه حقاً تبدل خطير جداً بالنسبة لكل إنسان، فالهداية صعبة وكذلك الارتداد.

إلا أن الإنسان قد يعيش- معتقداً بأنه لا يزال ضمن حدود الدين- حالةَ مد وجزر يتجاوز فيها تلك الحدود؛ فكانت الإشارة إلى "النية، والإخلاص" في قول النبي عليه الصلاة والسلام تحذيراً للمؤمن من هذا الأمر. إن العامل النفسي الذي يلعب الدور الأبرز في التبدل الذهني للإنسان في مثل هذه الأحوال هو "التبرير"، أي إضفاء المشروعية على العمل الذي يُراد القيام به. حيث يقحم الإنسان نفسه في عملية ذهنية يخرج منها بنتيجة تبرر العمل الذي يريده وذلك بتقريب الأعمال بعضها من بعض، كأن يقول لنفسه: "يمكن القيام بهذا العمل، وما المحظور في ذلك، أليس هو مثل العمل الفلاني؟" وهكذا.

> الإخلاصُ لبُّ العبادة، ويُوحِّدُ مرجعيةَ العقلِ والقَلب، وهو يَنتُجُ عن العبوديةِ لله تعالى وتطبيقِ الشريعة المقدَّسة، توخياً للأجر ومرضاةِ الله ﷻ، وهو عظيم. ويقول النبي ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه."

ولربما كانت دعوةُ النبي عليه الصلاة والسلام لنا "بالابتعاد عن الشبهات"، واختيارُ أولياء الله "العزيمةَ بدل الرخصة" في أعمال، من أجل تجنب الدخول في مثل هذا الميدان الخطير.

فعن نعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

"إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات

وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه. ألا وإن لكل مَلِك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه. ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب". (البخاري: الإيمان، ٣٩، البيوع، ٢)

لقد أشارَ النبي عليه الصلاة والسلام إلى "القلب" بعد تحذيره من الوقوع في الشبهات، لاحتمال اضطراب القلب وارتباكه لدى الاقتراب من تلك الميادين المشبوهة.

إن المسلم يقرأ سورة الفاتحة في كل ركعة من ركعات الصلوات التي يؤديها يومياً، ويقول نحو أربعين مرة في اليوم: "إياك نعبد وإياك نستعين". أي: يا رب، إن عبادتي لك وحدك، وليس لأحد سواك.

والله سبحانه وتعالى يريد بذلك أن يكون المؤمن في أشد حالات اليقظة والوعي.

إلا أن هذه القراءة لا ينبغي أن تكون منحصرة في الصلاة فقط، وإنما ينبغي أن تتحول في إلى صفة ملازمة للحياة دائماً.

إن "التبرير" أمر خطير، لأن الإنسان يُخرِج مسألةً ما عن مبادئ الدين ليجعلها متوافقة مع أهوائه النفسية.

وينبغي ألا يغيب عن بالنا بأنه في تلك الحال، أي حينما يضطرب الذهن، ستتهافت وساوس من الشيطان لا يتصورها العقل.ودعونا نستحضر هنا التحذير الإلهي في القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾

فينبغي ألا تتحول التبريرات إلى ميدان يستدعي فيه الإنسان الشيطان للمساعدة، فيقول له: "تعال واعثر لي على طريقة ما تمكنني من تجاوز أحكام الدين من جهة، ومن جهة أخرى أتخلص بها من الإحساس بالذنب".

فالشيطان دائماً يحمل أدواته، ويُوجِد الصيغ التبريرية للإنسان، فهذا عمله واختصاصه. إذ ينصب للإنسان المصائد في طريقه ويبعده عن الصراط المستقيم.

يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

"إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم". فيشير هذا الحديث الشريف تماماً إلى ما يفسد نياتنا، ففي بنية الإنسان مثل هذه القوة المتربصة به.

إننا نحتاج قبل بدء رحلة الآخرة- التي لا يعلم موعدها أحد إلا الله تعالى- إلى إعداد قلب نضع فيه الإخلاص. نحتاج إلى تصفية النيات، وجعل كل عمل في سبيل الله، حتى لا نتفاجأ بأن الأعمال التي دُوِّنَت في سجلاتنا- ونحسبها حسنات- إنما هي أعمال باطلة صادرة عن قلب فاسد. ويجب أن نكثر من تلاوة القرآن لأنه يعلمنا الانسجام الروحي السليم الأصلي. صحيح أن للأعمال إطارها الخارجي، إلا أن الذي يجعل العمل في سبيل الله ليس ذاك الشيء الذي نراه في الظاهر، وإنما هو الإخلاص أو النية الكامنة في الباطن.

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

"الدين النصيحة"- أي الإخلاص- قيل: لمن يا رسول الله؟ قال:

- "لله.
- ولكتابه.
- ولرسوله.
- ولأئمة المسلمين.
- وعامتهم".

(مسلم: الإيمان، ٩٥؛ البخاري: الإيمان، ٤٢)

الصد عن سبيل الله سبحانه وتعالى

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (الزخرف: ٦٢)

إسماعيل لطفي جاكان

كنا قد حاولنا في مقالتنا السابقة بيان ماهية جريمة صد الناس عامة والمؤمنين خاصة عن سبيل الله وأبعادها، والعقوبة الأخروية لهذه الجريمة.

وفي هذه المقالة سنحاول الوقوف عند الآيات القرآنية التي استعرضت الذين يرتكبون هذه الجريمة الكبيرة وشهرت بهم.

الصادون عن سبيل الله تعالى

الشيطان:

لقد وردت آيات قرآنية كثيرة حول عداوة الشيطان للإنسان، وبيَّنت أن عداوته هذه لا تستهدف لا الروح والمال، وإنما تستهدف بصورة مباشرة الإيمان. ويعمل الشيطان على صد عباد الله عن عبادته، وعن اتباع سبيله وصراطه المستقيم.

فيحذر الله تبارك وتعالى عباده بقوله:

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (الزخرف: ٦٢)

وأما الوسائل والمكائد، والأساليب التي يتبعها الشيطان لتحقيق غايته هذه فنجدها في الآيات الآتية:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ (المائدة: ٩١)

﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمَ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (العنكبوت: ٣٨)

أهل الكتاب:

يقول الله عز وجل:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران: ٩٩)

إن الخطاب الوارد في الآية الكريمة موجه إلى أهل الكتاب الذي يعملون على تنفير المؤمنين من الإسلام وإبعادهم عنه.

ولا شك أن أهل الكتاب الذين لا يسيرون على هذا النهج ولا يضعون العوائق في طريق المؤمنين لا علاقة لهم بهذا الخطاب والعتاب الإلهي.

وقد خصص الله تعالى في آية أخرى اليهودَ من بين أهل الكتاب فقال:

﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٦٠)

ويلفت القرآن الكريم الانتباه إلى ارتكاب كثير من رهبان أهل الكتاب وأحبارهم لهذه الجناية، فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٤)

إن هذه الآية الكريمة التي تشير إلى قيام الرهبان والأحبار بجمع أموال الناس بطريقة ما وأخذها بلا حق، وإلى صدهم عن سبيل الله، تحذر علماء الدين والذين يتولون أمر خدمته والذين تشبه مكانتهم مكانة الرهبان والأحبار.

وهنا ينبغي الانتباه إلى رجال العلم والدين المشهورين في الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي الذين يؤدون مهامهم، ونظرهم نحو الدخل المادي والشهرة، فلا يناصرون الحق، وإنما يحاولون تحريف الحقائق الدينية إرضاء لجهات معينة، ولمن لديهم قواسم مشتركة معهم.

العزُّ الرِّفعة وظهور الحقِّ

هو قَدَرُ الله تعالى لهذه الأُمَّة، ولن يخلوَ عصرٌ من عصور أمة الإسلام من طائفة تقوم بالحقِّ وتقول به، فهذا الصدُّ عن سبيل الله مَهْمَا طال واشتدَّ، فلا ينسينا هذه الحقيقة: أنَّ الله ﷻ قد اختار هذا الدين واصطفاه، ليبقى في الأرض، وليصلَ كلَّ سهلٍ ووادٍ، وكلَّ جبلٍ ووعرٍ، وسيبلغ نورُه ما بلغ الليل والنهار؛ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

الكافرون، والمشركون، والمنافقون:

يبين الله تبارك وتعالى أسلوب الكافرين الذين يُعدون أشد الناس ضلالاً وانحرافاً ونظرتهم إلى الدنيا والآخرة، وأكثر أعمالهم وضوحاً، فيقول في الآية الكريمة الآتية:

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (إبراهيم: ٣)

إن هذه الآية الكريمة تلفت الأنظار إلى أن السبب الأساسي لصد الناس عن سبيل الله وإظهار الطريق المستقيم معوجاً هو إعلاء شأن الحياة الدنيا على الحياة الآخرة، وتفضيل الدنيا على الآخرة. وحتى أن هذا التفضيل يصل إلى مرحلة إنكار الآخرة، حيث يقول الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ (الأعراف: ٤٥)

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (هود: ١٩)

ويخبر الله تبارك وتعالى بأنهم من الذين سوف يذيقهم العذاب الأليم يوم القيامة فيقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الحج: ٢٩)

إن هذه الآية المباركة تعلن بأن جرم الكافرين الذي يمنعون الناس سواء المقيمين أو الوافدين من الخارج من أداء واجب العبودية في المسجد الحرام هو كجرم الذين يصدون عن سبيل الله تعالى ومعرضون للعذاب ذاته.

وهذا الأمر يدل على مدى أهمية الكعبة والمسجد الحرام في ديننا الحنيف، وعلى مكانتهما.

والكافرون والمشركون سواء وفي خندق واحد في مسألة صد الناس عن سبيل الله تعالى. وتعلمنا هذه الآية المباركة بنتيجة أعمالهم، وتبين حالتهم هذه:

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ٩)

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد: ١)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد: ٣٢)

ونجد في الآية المباركة الآتية بياناً لأسلوب خاص يتفرد باستخدامه المنافقون في سعيهم لصد الناس عن سبيل الله، إذ يقول الله تعالى:

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (المجادلة: ١٦)

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون: ٢)

وقد حذر القرآن الكريم المسلمين أيضاً من اتخاذ اليمين وسيلة للخداع، إذ قال الله تعالى في هذا الشأن:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل: ٩٤)

من صفة المسلم الاستقامة والصدق في شتى ميادين الحياة الاجتماعية. ويعد الحنث باليمين إخلالاً بالاستقامة، وسلوكاً بعيداً عن الصدق.

وقد عُدَّ الحنث باليمين صدّاً للناس عن سبيل الله ﷻ لأن الذين يتخذون الحنث ديدنهم سوف يكونون قدوة لغيرهم.

ومثل هذا الجرم يؤدي في الدنيا لنتائج اجتماعية سيئة وخطيرة للمجتمع ولمرتكبه، ويُعاقَب عليه في الآخرة بعذاب شديد.

ونجد نداءً وتحذيراً آخر للمسلمين من سلوك الصد عن سبيل الله، وذلك في الآية المباركة الآتية:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (الأنفال: ٤٧)

فليُصغِ إلى هذا التحذير الرباني الذين يعملون في الميادين التي يكثر فيها استخدام اليمين وسيلةً للخداع والمراوغة مثل ميدان التجارة، والسياسة، والإعلانات، ولا سيما الذين يحاولون استخدام مثل هذا الأسلوب في مجال الإرشاد الديني.

الإخلاص

الشخصية الصافية النقية الخالية من الشوائب

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (البينة: ٤)

د. آدم أرغول

لا شك أن أحد أهم أهداف الدين إيصالُ الإنسان إلى كمال الشخصية الصافية النقية الخالية من الشوائب. ويمكن القول بأن "التزكية" اسمٌ لعملية الوصول إلى تلك الدرجة.

عندما تُذكر عبارة "إخلاص الدين" في كلام الله ورسوله، فإن أول ما يخطر في ذهن الإنسان هذه المفاهيم الثلاثة: الإخلاص، والصدق، والنصيحة.

فأما الإخلاص فهو اسم للنقاء والصفاء، وهو يدل بصورة خاصة على أن يكون القول والعمل في سبيل الله، خالصاً له، ولا يُرَادُ بهما إلا رضاه، ولا شيء ولا أحد سواه أبداً. وإخلاص العبودية لله وحده صفةٌ لأداء العمل باسمه تعالى، وليس باسم أحد غيره، ولا حتى باسم صاحب العمل. والناس في الحقيقة مأمورون بمثل هذه العبودية، إذ يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (البينة: ٤)

وأما كلمة الصدق فإنها تعبر عن استقامة الإنسان ونزاهته بجوهره، وقوله، وعمله، وهذه نتيجة طبيعية للإخلاص.

والله سبحانه وتعالى يربط بين الإيمان الحقيقي والصدق، فإذا انتفى الصدق من موضع بدا فيه النفاق. حتى إن الله سبحانه وتعالى قد بيَّن في كتابه العزيز أنه سوف يختبر الذين يدَّعون الإيمان- أي الذين يقولون "آمنا" بالتعبير القرآني- بامتحانات شتى لإظهار صدق إيمانهم، حيث يقول:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾

(العنكبوت: ٢ – ٣)

أما كلمة النصيحة فإنها واحدة من أغنى الكلمات في اللغة العربية من حيث المعاني والدلالات. فهي تأتي في معاجم اللغة بمعان مختلفة مثل: "خلاصة الشيء، وصفوته؛ الابتعاد عن المساوئ والمفاسد؛ الوفاء والإخلاص؛ حسن الظن بالآخرين وإرادة الخير لهم". وقد استخدم النبي ﷺ هذه الكلمة بمعنى "الإخلاص" الذي هو أساس الدين وغايته، ويتضح ذلك بصورة جلية في الحديث النبوي الآتي:

عن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه قال: قال النبي عليه الصلاة والسلام:

"الدين النصيحة".

قلنا: لمن يا رسول الله؟

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

"لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم".

(مسلم: الإيمان، ٩٥؛ البخاري: الإيمان، ٤٢)

إن لهذا النبوي الشريف أهمية عظيمة من حيث دلالته على أن الإخلاص هو المعيار الذي يُقاس به شخصية المسلم والعبودية التي يهدف الدين إلى تحقيقها، فنفهم من الحديث بأن التدين يكون بقدر الإخلاص.

والتناقض الذي يظهر لدى بعض الناس بين أقوالهم وأفعالهم يُسميه القرآن "نفاقاً"، ويُعد ذلك إشارة إلى ظهور مرض قلبي لدى هؤلاء.

ويريد ربنا سبحانه وتعالى الصدقَ والإخلاص في الإيمان، إذ إنه يحذر الذين يتظاهرون بالإيمان مع أنه لم يستقر في قلوبهم، حتى إنه يبيِّن في كتابه العزيز- كما ذكرنا- بأنه سوف يمتحن الذين يعلنون إيمانهم بلسانهم ليتبين إن كانوا صادقين ومخلصين في إيمانهم أم لا.

عن تميم بن أوس الداري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: "الدين النصيحة". قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: "لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم". (مسلم: الإيمان، ٩٥)

ويذكر المولى عز وجل بأن الذين يقولون "سمعنا" عند تلاوة الآيات القرآنية، ثم لا يصدقون ولا يخلصون في قولهم هذا، بأنهم شر الدواب على وجه الأرض.

ويوضِّح عز وجل أن الذين ينافقون أمام النبي عليه الصلاة والسلام، ويقسمون كذباً لإخفاء أنفسهم، إنما هم المفسدون الذي لا يعقلون ولا يشعرون، ويعدُّ مثل هؤلاء الذين لم ينالوا نصيباً من الإخلاص ألدَّ الأعداء.

وكثيراً ما يُذكِّرنا سبحانه وتعالى بالذين لا يصدقون مع المسلمين، والذين دأبهم المراوغة ومحاولة خداع المؤمنين، وبضرورة الحذر منهم. ويلفت النظر إلى إمكانية معرفتهم من خلال أقوالهم وأحوالهم، إذ يشير بأن دأبهم السعي خلف المصالح والمنافع، فتراهم يغيرون صفوفهم بصورة مستمرة تبعاً لتلك المنافع.

ويريد ربنا سبحانه وتعالى إخلاص المؤمنين في توبتهم. ويأمرهم بالندامة الصادقة على الذنوب التي اقترفوها، وبالعزم المخلص على عدم العودة إليها،

ثم التوجه إلى الحق والحقيقة، حيث يقول في القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ...﴾ (التحريم: ٨)

وفي موضع آخر يدعو إلى الصدق والإخلاص في العمل والسلوك، حيث يقول:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠)

مبيناً بأن الأعمال التي يتخللها الرياء، والمفاخرة، أو يُقصد بها غيره ليست مقبولة عنده، ولا اعتبار لها أبداً.

ويمتحن ربنا ﷻ عباده أحياناً بالنعم التي يغدقها عليهم، وأحياناً بالمصائب التي يبتليهم بها لإيصالهم إلى جوهر الإخلاص، إذ يقول في كتابه العزيز:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٥)

ويبين الخالق جل جلاله بأنه يحفظ عباده المخلصين، ولا يدعهم أبداً يسقطون فريسة في أيدي شياطين الإنس والجن، ويشير في معرض ذلك إلى أن الإخلاص يشكل خير درع واقٍ للمؤمن من كل سوء يتربص به، فيقول:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: ٢٤)

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الحجر: ٣٩ – ٤٠)

وخلاصة الكلام أن الإخلاص إنما هو الخصلة المميزة للإنسان، ولا يمكن دونها تكوين أسرة سليمة ناجحة، ولا تأسيس العلاقات مع الناس مثل الشركات والصداقات، والأهم من كل ذلك لا يمكن إنشاء علاقة صحيحة وسليمة مع الله ورسوله. ولا نستطيع الحديث عن الألفة، والوحدة، والسلام والسعادة، والطمأنينة، والمحبة، والتوفيق حينما لا يكون الإخلاص.

ويُعَدُّ الإخلاص أهم أعمال القلوب المندرجة في تعريف الإيمان، وأعظمها قدراً وشأناً، بل إن أعمال القلوب عموماً أهم من أعمال الجوارح، ويكفي أنّ العمل القلبي هو الفرق بين الإيمان والكفر، فالساجد لله والساجد للصنم كلاهما قام بالعمل نفسه، لكن القصد يختلف، وبناء عليه آمن هذا وكفر هذا.

أكثر ما نحتاج إليه:

العفو المحمدي

والأخوة اليوسفيَّة

أحمد باشَر

لقد خلق الله سبحانه وتعالى البشرَ وجعل من صفاتهم الضعف والجهل والحاجة إلى نضج الأخلاق، لهذا فإننا سريعو التأثر بكل ما يحيط بنا، فتتبدل مواقفنا من الأحداث التي تجري من حولنا، فتارة نظهر رد فعل مبالغ تجاه بعضها، وتارة نظهر فرحاً مفرطاً تجاه أحداث أخرى. ويُعد الاعتدال، أي الوسطية في كل الأحوال والتأني والاتزان والصبر من أفضل الأحوال. ولكن هذا الأمر لا يستطيع التحلي به إلا أصحاب الأخلاق الحميدة، ومع الأسف لم يبقَ من هؤلاء الناس إلا القليل.

وإذا أردنا تقديم أمثلة من حياتنا فهي كثيرة، ومن ذلك قول بعض الناس: "إن فلاناً لم يحضر حفل عرس ابن أخي، وفلان لم يزرني في العيد وقد كنت ذهبت إليه من قبل عدة مرات، لقد اغتابني صديقي فلان... إلخ".

نعم، ربما ينبغي ألا تحدث مثل هذه الأمور، وربما نكون محقين تماماً في هذه المسائل؛ إلا أن بعض الناس يقاطعون بعضهم بسبب هذه المسائل التي لا يمكن إحصاؤها لأيام، بل حتى لأعوام، فلا مناسبات الأعراس تكفي لإنهاء هذه القطيعة، ولا الأعياد. فعندما ينشغل التفكير بمثل هذه الأمور والوساوس فإنها تكبر وتتعاظم في نظرنا، وتظل برودة العلاقات تدمي قلوبنا جرحاً اجتماعياً خطيراً.

إننا نعيش في بلاد إسلامية، وأغلبنا قد قرأ شيئاً قليلاً أو كثيراً من سيرة النبي ﷺ. فقد قضى النبي ﷺ السنوات

الإحدى عشرة الأولى من النبوة يتألم ويعاني، وتعرض فيها لكثير من الظلم والأذى والاضطهاد. والآن فلنتأمل الأحداث التي تعرض لها، ونسأل أنفسنا:

هل الإخوة والأقرباء الذين نقاطعهم قد ألقوا فوق رؤوسنا أحشاء ناقة ونحن قائمون نعبد الله؟ وهل حاصرونا وأحبابنا حصاراً اقتصادياً لنتعرض للجوع والعطش؟ وهل أجبروا أقرباءنا وأصحابنا على الهجرة إلى بلد مسيحي لعدم تحملهم لصنوف الاضطهاد والتعذيب التي تعرضوا لها، أم هل قتلوا بعض أحبائنا تحت التعذيب الشديد؟ هل وضعوا الخطط من أجل قلتنا؟ أم هل أجبروا كثيراً من أصحابنا وأحبابنا الذين نجوا من القتل بعون الله، على ترك أموالهم وأقربائهم والهجرة من وطنهم إلى بلاد أخرى؟ وهل وعدوا بالجوائز من يأتي برؤوسنا إليهم؟ أم هل قاموا بملاحقتنا إلى البلاد التي اضطررنا للهجرة إليها، وشنوا علينا كثيراً من الحروب غير المتكافئة في العدد والعتاد؟

لقد تعرض حبيبنا ونبينا عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم لكل هذه الأحداث. فما كان ذنبه عليه الصلاة والسلام حتى يتعرض لكل ما تعرض له؟ وما كان هدفه غير تبليغ الدين الحق؟ كان من حق النبي عليه الصلاة والسلام بعد فتح مكة التي تُعد قبلة المسلمين ومركز أداء فريضة الحج، والموطن الذي ولد وترعرع فيه، أن يقتص من أهل مكة على أساس الأحكام الشرعية فيقتل بعضاً منهم، ويُنزل أشد ألوان العذاب بالآخرين، لو أراد الانتقام من أهلها الذين عذَّبوا المسلمين وقتلوا أقرباءهم، أليس كذلك؟ إلا أنه لم يفعل شيئاً من ذلك، بل عفا عن الظالمين. وبهذا العفو بيَّنَ للناس عظمة شأنه، وحسن أخلاقه. وبالعفو أظهر للناس أن الدين الإسلامي دين رحمة. وبالعفو منع ظهور مشاعر الحقد والانتقام، والضغينة التي كانت سوف تستمر لأجيال متلاحقة.

يتلو معظمنا القرآن الكريم، ويقرؤون الشروح والتفاسير. فهل تلوتم يوماً سورة يوسف التي تقدم لنا قصة من أجمل القصص القرآنية، أو حتى تفسيرها؟ إن لم تكونوا قد قرأتم هذه السورة والقصة فإني أوصيكم بقراءتها، وتعالوا بعد ذلك لنتفكر معاً:

"هل حاول إخواننا الحقيقيون قتلنا عمداً وإخفاء أثرنا من الدنيا نهائياً برمينا في البئر؟ وهل بعد أن أنقذنا الله من الموت وأخرجنا من البئر وقعنا أسرى في يد بعض التجار وتم بيعنا عبيداً؟ وهل بعد ذلك عندما دخلنا إلى قصر أحد الملوك عبيداً تعرضنا لامتحان عصيب فوقعنا في مكيدة امرأة الحاكم لحسن هيئتنا وجمال وجهنا، ثم تعرضنا نتيجة لذلك لغضب الحاكم ظلماً وعدواناً؟ وهل بقينا في غياهب السجن اثنتي عشرة سنة من غير ذنب؟ وهل أُعمي بصر أبينا من كثرة البكاء حزناً وكمداً علينا؟"

دعونا نجيب على هذه الأسئلة بهدوء، وقولوا أيها الإخوة أي من إخواننا المسلمين الذين نقاطعهم ونهجرهم قد فعل بنا شيئاً من الأمور التي ذكرت في الأعلى؟

فكل هذه الأمور قد جرت مع سيدنا يوسف عليه السلام. ثم بُرئ بكرم الله تعالى من التهمة الباطلة التي افتريت عليه، وأصبح وزيراً لخزائن مصر- أو ما يعرف حالياً بوزير المالية- وفي السنوات التي تعرضت فيها البلاد للجدب والجفاف، توافد الناس من سائر الأنحاء طلباً للطعام والمؤن، وكان من بين هؤلاء إخوة يوسف الذين جاؤوا من بعيد يطلبون المؤونة. فعرفهم يوسف عليه السلام، وأما هم فلم يتمكنوا من التعرف عليه. فأعطاهم يوسف عليه السلام مطلبهم، ولما أقدم على أمر كي يضمن عودتهم مرة أخرى ومعهم أبوه، أدرك الإخوة بأن الذي يقف أمامهم هو أخوهم يوسف عليه السلام. فماذا قال لهم يوسف عليه السلام في تلك اللحظة؟ لقد قال لهم كما ينقل لنا البيان الإلهي:

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف: ٩٢)

يمكن أن يقال: "نحن لسنا أنبياء حتى نصبح مثلهم". أجل، نعم لسنا بأنبياء، ولكن غداً في يوم القيامة نرجو شفاعة رسول الله ﷺ، فكيف سنطلب منه الشفاعة إذا لم نعف عن إخوتنا الذين هجرناهم لأسباب تافهة لا قيمة لها؟ فتعال وتصالح مع أخيك الذي هجرته. هل سندع التصالح والتسامح إلى الآخرة، وإذا لم نتخذ الأنبياء قدوة لنا فمن سنتخذ إذاً؟ وإذا لم نتخذ القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد، فأي كتاب سنتخذ إذاً؟ فنحن لا نستطيع أن نقول لما ورد في القرآن الكريم مثل قول الذين لا يؤمنون به:

﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (القلم: ١٥)

إننا نرى ونعلم أن جبهة الكفر بمسيحيها، ويهودها، وبوذيها، وملحدها قد اصطفوا في خندق واحد وجعلوا الإسلام عدواً مشتركاً لهم، وأخذوا يثيرون شتى أنواع الفتن بكل ما أوتوا من قوة وحيل ومكائد، ويلحقون بالمسلمين مختلف أشكال الأذى والضرر ومن كافة النواحي وبشتى الوسائل تحت اسم الحرب الشاملة. أليس أشد ما نحتاج إليه في ظل هذه الظروف إشاعة السلام والأخوة بين المسلمين جميعاً على مستوى الأفراد، والأسر، والجماعات، والدول، والتوحد ضمن قوة واحدة؟. نسأل الله تعالى أن يزيد من وعي المسلمين، وأن يرزقنا بشيء من عفو نبينا عليه الصلاة والسلام، ومن أُخوة يوسف عليه السلام.

هذا العفو الكبير هل شهدت الدنيا مثيلا له؟

كيف فتح محمد عليه الصلاة والسلام مكة؟ وماذا فعل بأهلها الذين كذبوه وأهانوه وأخرجوه؟

قال ابن اسحاق: فزعم بعض أهل العلم ان سعدا حين وجه داخلا، قال: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة!» فسمعها رجل من المهاجرين، قال ابن هشام: هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله اسمع ما قال سعد بن عبادة، ما نأمن ان يكون له في قريش صولة، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام لعلي بن أبي طالب: أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها.

وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام قد عهد الى امرائه من المسلمين حين أمرهم ان يدخلوا مكة، ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم.

ودخل مكة عليه الصلاة والسلام متواضعا أشد ما يكون التواضع، فلما انتهى الى ذي طوى وقف على راحلته، وان رسول الله عليه الصلاة والسلام ليضع رأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى ان لحيته ـ لتكاد تمس واسطة الرحل.

اذهبوا فأنتم الطلقاء

قال ابن إسحاق: إن رسول الله ﷺ لما نزل مكة، واطمأن الناس، خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعا على راحلته، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له فدخلها.

ثم قام على باب الكعبة، فقال:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى، فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج».

ثم قال: «يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية:

﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ (الحجرات: ١٣).

ثم قال: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: «خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم» قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

الحساب

نور الدين يلدز

مهما كانت الشدائد والمصائب كثيرة فإننا مع ذلك عاجزون كل العجز حتى عن إحصاء النعم التي نتقلب فيها، ولا يمكن مهما كثرت البلايا التي حوَّلناها إلى مرض عضال تغطيةُ هذه الحقيقة. لا شك أننا سنتعرض لمصائب وهموم لأننا بشر، ومن المؤكد أننا سنتعب، ونُرهق، ونعرق، ونتدهور صحياً. وإلا فأي معنى آخر يمكن أن يكون لكوننا بشراً؟ والمكان الذي نعيش فيه إنما هو هذه الدنيا، فنحن لسنا في الجنة، ولا يمكن أن ندَّعي وكأننا في عالم لا بلاء فيه. إن الفرق بين الذين يعتقدون أن الدنيا جنة والذين يسعون للانتقال من الدنيا إلى الجنة يكمن في هذه الحقيقة التي تُظهِر أن الحياة على الرغم من منغصاتها إنما هي مرحلة امتحان. ويمكن أن ننظر إلى هذه الحقيقة كحقيقة الذي يشعر باللذة والمتعة حتى بأكل الفلفل الحار.

إننا نتقلب ونسبح في النعم على الرغم من كل شيءٍ، وأعظم نعمة أُكرِمنا بها نعمة الإيمان. فما أعظمه من لطف بعد أن خُلقنا بشراً أن نعيش متوَّجين بتاج الإيمان. وإذا نظرنا إلى هذا اللطف على أنه نعمة عادية، فذلك يعد انتقاصاً من حق النعمة واحتقاراً لها. والقدرة على العبادة بوصفها ضرورة من ضرورات كون الإنسان من أهل الإيمان تعد أكبر نعمة، فعندما نعدد النعم فمن الضروري أن نذكر هذه النعمة أولاً.

وأما ثاني أكبر نعمة فهي المدة الزمنية التي بين أيدينا. فقدرتنا على التنفس، وبقاء أبواب التوبة عن الذنوب- حتى وإن كثرت الخطايا- مفتوحة يُعدُّ نعمة عظيمة. ولا يقتصر ذلك على الأيام فحسب بل حتى الدقائق تُعد فرصة قيمة مثل العمر كله.

إذا ما نظرنا من هذه الناحية إلى هذه الدقائق الموجودة بين أيدينا والتي نستطيع عيشها، فيمكننا وقتها تقدير النعم الكبيرة التي أكرمنا بها ربنا سبحانه وتعالى بصورة أفضل.

إن صحتنا، وأفراد أسرتنا، وبيئتنا، والأطعمة والأشربة المتنوعة التي بين أيدينا تشكل كل واحدة منها نعمة مختلفة ومتميزة. فكل شيءٍ يصل إلى أيدينا ونلمسه يُعد نعمة قائمة بذاتها. وحتى المرض الذي يثقل كاهلنا يُعد نعمة بالنسبة للذين ينظرون إلى الأمور نظرة المؤمن، فإذا استطعنا جعل المرض سبباً لمحو ذنوبنا وخطايانا، ولزيادة رقة قلوبنا، ولتنمية الرأفة والرحمة بين جوانحنا، نكون وقتها أمام فرصة ذهبية لتحويل ذاك المرض إلى نعمة كبيرة. وكأن الله سبحانه وتعالى حشد الأصدقاء الذين يمكن أن نتبادل معهم الكلام ونسمع منهم كلاماً طيباً وأزواجنا الذين نقضي معهم رحلة عمرنا، من حولنا كي يسعدنا ويدخل السرور في أفئدتنا. أليست الإنسانية النظرُ إلى كل ما هو محيط بنا ابتداءً من الورود المتفتحة في البساتين، وإلى الأطفال الذين يلدون ويكبرون من حولنا سواءً

النعمة على

كانوا أبناءنا، أو أحفادنا، أو أبناء أقربانا على أنهم مصدر لسعادتنا؟ ألا يقتضي كل ذلك الإيمان؟

هل هناك شك بأن موطننا الأصلي إنما هو الآخرة؟

لم نكن لننظر إلى مكاننا الحالي مثل الآخرة! ففي النهاية هنا المكان الذي يُسمى الدنيا.

هذا المكان مكان تم إنشاؤه وإعداده من أجل استخراج الرحمات من المصاعب والمشقات. فهو فانٍ، ومنبع للمصائب كمقتضى من مقتضيات الفناء.

إن النعم التي بين أيدينا نِعمٌ سوف نسأل عنها ذات يوم. وسواء قدَّرنا النعم التي بين أيدينا أم لم نقدِّرها فإن الذي أكرمنا بها سوف يحاسبنا عليها. وليس المكان والزمان اللذان سنُحاسَب فيهما عن هذه النعم ببعيد عنا. والنعم التي أهملنا أو قصرنا في تقديرها حق قدرها سوف تكون سبباً لتوترنا واضطرابنا في ذلك اليوم. سوف نُسأل عن أزواجنا وحياتنا الأسرية على أنها نعم بين أيدينا. سوف نُسأل عن الأولاد وعن أصحابنا وعن إخواننا المؤمنين بلا استثناء.

إن الطعام الذي نتناوله، والماء الذي نشربه، وحتى الكلمات التي نستخدمها كلها نِعم. وابتساماتنا، وإلقاؤنا السلام، ودعاؤنا، وصدقاتنا كلها نِعم. سوف يدرك الإنسان في المكان الذي يُسأل فيه عن النعم ماذا تعني الابتسامة، والكلمة الطيبة، والأخوة.

إننا نتقلب في نعم عظيمة؛ من هذه النعم أننا خُلِقنا أُناسًا مكرَّمين، وامتلاكنا لهذا الجسم نعمة، وكوننا من أهل الإيمان نعمة، وكوننا خُلقنا من أمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام نعمة، وامتلاكنا لكتاب عظيم مثل القرآن الكريم نعمة، والناس المحيطين بنا من إخوة وأصدقاء نعمة، وأزواجنا وأولادنا نعمة. إن جميع النعم- وإن كان بعضها يجلب الشدائد- سنُحاسَب عليها. فليست هناك نعمة لن نُسأل عنها. علينا أن ننظر إلى النعم التي سوف نُحاسَب عليها ونقدرها بظروف اليوم الذي سوف نؤدي فيه حسابها، وليس بظروف حالتنا الحاضرة، وإلا لا نكون قد عملنا بمقتضى إيماننا؛ فذلك اليوم آت لا محالة، والحساب قطعي ويقيني.

يوميات
القرآن الكريم

جعفر دورموش

الآية المباركة التي تُعد خلاصة القرآن الكريم

يقول ربنا سبحانه وتعالى الذي يحث عباده على عمل الخير بشتى الوسائل، معلّماً إياهم الصلاحَ والبر:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧)

لقد كان سبب نزول هذه الآية المباركة كثرةُ الأقاويل التي أثارها أهل الكتاب حول مسألة تغيير القبلة. حيث أصر اليهود والنصارى في ذلك الوقت على ادعائهم بأفضلية التوجه إلى قبلتهم، فجاء خطاب الله تعالى إلى كافة الناس عن طريق الرد على ادعائهم، حيث قال:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ (البقرة: ١٧٧)

إن هذه الآية الكريمة التي تُعد اختصاراً للقرآن الكريم تُذكِّر أولاً بالأمور التي لا تُعد براً وخيراً، ثم بعد ذلك تبيِّن الأمور التي تعد خيراً، وبذلك فإنها تحثنا على توحيد كل أقوالنا وأفعالنا ضمن إطار الخير والبر.

وأما النبي عليه الصلاة والسلام الذي أوتي جوامع الكلم فإنه يختصر الخير والبر بكلمتين، إذ يقول:

"البر حسن الخلق".

وبذلك فإنه يشير إلى الجانب الأخلاقي لكل ما يفعله الإنسان بدافع البر والخير. ويعلمنا بأن عمل الخير والبر لا يكون مقبولاً إلا إن كان مترافقاً بحسن الخلق.

وعندما ننظر في القرآن الكريم لفهم هذه الآية المباركة بشكل أوضح فإننا نعثر على تنبيهات منها قوله سبحانه وتعالى:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ...﴾ (آل عمران: ٩٢)

وعلى الأمر الآتي:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ...﴾ (المائدة: ٢)

ونجد في آية أخرى التحذير والتنبيه الآتي:

﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (النساء: ٣٨)

ونرى في سورة المطففين البشارة الآتية:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ. تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (المطففين: ٢٢ – ٢٤)

عندما نفتح قلوبنا مرة أخرى في ضوء هذه البشارة على الآية التي سبق أن ذكرناها فإننا نجد بأنه قد اختُصر هناك كل شيءٍ من جنس البر والخير.

ولهذا فإننا نود أن نورد أشكال البر المذكورة في الآية المباركة على شكل بنود أربعة هي:

الأول: أركان الإيمان. فالإيمان يُعد رأس كل المحاسن. فإذا لم يدخل الإيمان إلى القلب ولم يستقر فيه فمن العسير الإقدام على العمل الصالح، وحتى إن كان هناك أعمال خير من غير إيمان فمن العبث انتظار ثمارها. ولهذا فقد أعطت الآية الكريمة الأولوية لذكر أركان الإيمان.

الثاني: العبادات. ويُعد الإنفاق على المحتاجين الخالي من أي منفعة أو مصلحة، وإقامة الصلاة، وإخراج الزكاة من جملة هذه العبادات. إن ذكر العبادات بعد الإيمان في الآية الكريمة له أهمية كبيرة، لأن الإيمان كجذع شجرة الإسلام، وأما العبادات فهي بمثابة فروعها وأغصانها.

وإذا ما تأملنا في الآية نجد أن أولوية الذكر قد أعطيت لإنفاق المال على المحتاجين. وهذا لأن الدين يقتضي التضحية بالمال والنفس. فتلبية الاحتياجات الضرورية من تأمين الأمان والسلام، وتأسيس الأخوة الإسلامية لا تحتاج إلى تفكير عميق. ولذلك ينبغي التشبث بالإنفاق في السعة والضيق على حد سواء، حتى إن الإنفاق في الضيق أولى وألزم.

الثالث: المعاملات والعلاقات الإنسانية. ويأتي على رأس هذه المعاملات والعلاقات احترام المواثيق والاتفاقيات والعهود. ونود هنا أن نشير إلى قول النبي عليه الصلاة والسلام الذي يرويه عن ربه:

"ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر...". (البخاري، البيوع، ١٠٦) لأن الوفاء بالعهد له أهمية بالغة في تأسيس النظام الاجتماعي ودوامه.

الرابع: الصفات الأخلاقية، وأساسها الصبر. إذ ينبغي التحلي بالصبر في مختلف أشكال البلاء والشدة والضيق، لا سيما في الأحوال التي يسود فيها الموت، والمجاعة، والتشرد نتيجة للحروب أو الكوارث الطبيعية.

وصفوة الكلام أن الذين يبذلون جهودهم من المخلصين في إيمانهم، والصادقين في أعمالهم، في سبيل تنفيذ الواجبات الملقاة على كاهلهم والتي اختُصِرَت في الآية الكريمة بالإيمان، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، إنما هم أصحاب الأخلاق الحسنة والحميدة. إن ما نحتاجه وما علينا فعله هو تطبيق هذه الآية وأمثالها والتمسك بها. وعلى قدر رغبتنا بالتمسك بأولى القبضتَين السليمتَين اللتَين أُمِرنَا بالتمسك بهما نكون متمسكين بالقبضة الأخرى.

الثبات على الدين

قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج: ١١)

هناك بعض الناس الذين من عادتهم نسيان الخالق المنعم والرزاق الحقيقي وعصيانه، يعبدون الله تعالى وهم في شكٍّ من دينهم، ولكن ليس هناك يقين ولا ثبات في عبادتهم. إنهم لا يتمسكون بالصدق في دينهم لكي يتيسر لهم العودة إلى الجهة الأخرى في حال جرت الرياح كما لا يشتهون، ولم تسر الأمور لصالحهم، أو تعرضوا لضرر دنيوي. فمثل هؤلاء إذا أصابهم خير ونفع، اطمأنت قلوبهم وعدُّوا هذا الخير من الدين. وأما إن أصابتهم فتنة وشر، ارتدوا وتركوا الدين، وانتقلوا إلى جبهة الكفر والضلال.

وقد ورد عن المفسرين أمثال فخر الرازي وغيره أن هذه الآية نزلت في طائفة من الأعراب كانوا يقدمون على رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى المدينة مهاجرين من باديتهم، وكان أحدهم إذا قدم المدينة: فإن قوي بها جسمه، أو ولدت فرسه مهراً حسناً، أو ولدت امرأته ولداً، أو كثر ماله وماشيته، رضيَ واطمأن، وثبت على دينه، وقال:

ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً. وإن أصابه وجع في المدينة، أو ولدت امرأته بنتاً، أو ذهب ماله، أو تأخرت عنه الصدقة، تشاءم بالإسلام فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شراً، فينقلب على دينه، ويرتد عنه.

فالله عز وجل يشبه حال الذين لا يطمئنون في دينهم ولا يثبتون عليه بحال الجنود الذين يقفون جانباً في المعركة ويترقبون سيرها من بعيد؛ فإن رأوا نصراً وغلبة اشتركوا فيها، وأما إن رأوا تقهقراً وهزيمة لاذوا بالفرار.

وبناء عليه فإن الإنسان المتذبذب وغير الثابت على دينه كحال الذي يدور حول المعركة ولا يدخل إلى ميدانها تماماً. ويُطلق على مثل هؤلاء اسم المنافقين. ففي معركة أحد امتنع نحو ثلاثمئة من المنافقين عن القتال في لحظات حرجة، فأظهروا النفاق الذي كانوا يضمرونه في قلوبهم، وأماطوا اللثام عن جريمة خيانتهم للدين.

تبين الآية الجليلة الآتية مراد الله سبحانه وتعالى من جعل الشيطان يوسوس للإنسان ويغويه:

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (الحج: ٥٣)

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأعراف: ٢٠٠)

أي إن الشيطان يتربص من أجل الإيقاع بالإنسان وغوايته، فإذا ما بدأت الوسوسة أثناء الغضب، فيجب فوراً الالتجاء إلى الله تعالى تجنباً لشر الشيطان، وذلك بالاستعاذة منه ومن شره.

ويفسر فخر الدين الرازي وغيره نزغ الشيطان بأنه الوسوسة وإلقاء الفساد والأماني في قلب الإنسان، والتشويش على عقله وإيقاعه في الإرباك والتوتر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ. وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠١ – ٢٠٢)

تربية الأبصار

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ...﴾ (النور: ٣٠ – ٣١)

ورد في تفسير هاتين الآيتين أنه على الرغم من احتوائهما على أمر بحفظ الأعين والأعراض عن كل ما هو محرم، فإن "الأبصار" قد ورد عليها استثناء بحرف الجر "من" التي تدل على الجزئية، لأن المستثنيات من العين كثيرة. فذُكر لفظ "الفروج" بشكل مطلق، أما لفظ "البصر" فقد قُيِّدَ بالجزئية، لأن غض البصر سلوك أطهر من أجل حفظ العرض، والابتعاد عن الشبهات.

يقول الكاشفي: أسرع رسول للشيطان في جسم الإنسان إنما هو العينان، ذلك أن أعضاء الحواس الأخرى ثابتة ساكنة في مكانها. وأما العين فيمكن أن تصطاد الناس من بعيد ومن قريب.

ويقول النبي ﷺ في الحديث الشريف:

"اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتُمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم". (مسند أحمد: ٥، ٣٢٥)

وبناءً على ذلك فإن تربية جيل يتمتع بالعفة مرتبط بتربية أبصار المؤمنين برجالهم ونسائهم. فالشرط الأول للعفة كما يشير إليه القرآن الكريم إنما هو تربية الأبصار.

الهموم وأسبابها

الكل في حالة ضيق في وقتنا الحالي، والكل يعيش في هَم، فالأفراد في هَم، والجماعات في هَم. الشباب يفتقدون الطمأنينة والسلام الداخلي، وكذلك الشيوخ، والفقراء، والأغنياء، والتجار، والصناع، والموظفون، والعمال، جميعهم يفتقدون الطمأنينة، وكأن الطمأنينة قد تحولت إلى عنقاء اختفت بين طيات السماء.

ويحصل الجميع على ما يريدون على حسب طاقاتهم، ويجدون بين أيديهم شيئاً من النقود لينفقوها كيفما شاؤوا.

ليس فقط الموظفون ذوي الدخل المحدود يعيشون في حالة ضيق وأزمة، وإنما أيضاً العاجزون عن العمل.

ننظر من حولنا فنجد أن هناك أبنية بالغة الضخامة والفخامة يتم إقامتها في شتى الأنحاء لتذكِّرنا بقصور قيصر وكسرى، إلا أنه حتى أصحاب تلك الصروح والقصور الفارهة مضطربون وغير مطمئنين. والأمر كذلك بالنسبة إلى من يسكنون في البيوت الصغيرة المتواضعة، وفي المناطق العشوائية؛ فالكل في حالة يرثى لها.

تسود حال من الحسد بين الناس، فعيون الناس على أموال غيرهم لا تفارقها أبداً. ترى الذي يحقق أرباحاً كبيرة يحترق غيرة وحسداً ممن يحقق أرباحاً أكثر منه، وكأن هذه الغيرة تأكل من جسده؛ فلا أحد راض بحقه وشاكر ربه عليه.

ولو أن أحدهم حصل على تسعة وتسعين بالمئة مما يريده ويهدف إليه، فإنه يرى نفسه تعيساً سيء الحظ لذاك النقص المتمثل بالواحد بالمئة. فلدى الجميع عين لا تعرف للشبع معنى. الصدور ضيقة، والقلوب مضطربة، لم يبقَ شيءٌ مما يُعرَف بعالم القلب أو الروح.

البلاء عظيم لدرجة أن أدهى حكماء الزمان عاجزون عن إيجاد مخرج له. يبدو الناس وكأن بعضهم أصبح أعداءاً لبعض. والقليل الذي تبقى من أصحاب الفضل والاستقامة والذين يودون القيام بأعمال الخير والبر يُنظَر إليهم نظرة الأحمق المغفل.

يا إلهي! كم تغيرت المشاعر والأفكار. ليس هناك مجال أمام أحد للخروج من المستنقع الموحل الذي غرق فيه، والتخلص منه، وحتى لا نية لأحد في ذلك.

ووباء هذا العصر هو هذه الأمراض المعنوية التي تنخر القلوب والصدور.

إننا نشاهد في المدن الكبيرة التي تبدو عليها مظاهر الحضارة والمدنية في الظاهر تزاحماً وتدافعاً عند كل شارع، وفي وسطه نجد المظاهر التي تخدش العفة والحياء، والسرقة، والنشل؛ ونجد صراعاً بالسكاكين، وإشهاراً للسلاح، وأصواتاً لإطلاق النيران.

والخلاصة ليس هناك أحد راض عن حياته وعمله ومصدر دخله. ليس هناك إلا الشكوى والتذمر.

ولهذا لا يجرؤ أحد على السؤال عن أحوال غيره، لأن الجواب الذي سوف يتلقاه لن يكون إلا الشكوى والتذمر.

الكل محروم من النظام الأسري، ومن المحبة والألفة داخل الأسرة. فالأمهات والآباء لا يستطيعون التواصل مع أبنائهم كما يليق بعلاقة الوالدين بأبنائهما. ولأن الأحوال الأخلاقية أصبحت عقيمة فلم يعد باستطاعة الآباء أن يكونوا قدوة حسنة، أو يربوا أبناءهم تربية فاضلة. لم يعد باستطاعة أحد التأثير بكلامه في زوجته أو أولاده.

لقد فقد الرجال كرامتهم وحزمهم، وكأنهم تحولوا إلى دمى. وتوجهت كافة جهودهم ومساعيهم إلى المعدة والقسم السفلي من أجسامهم. لقد فُقِدَت الأذواق والآداب الرقيقة والحياء وغيرها من الأخلاق الجميلة والحميدة.

اللهم إنا نسألك بحرمة الحبيب الأديب نبينا محمد، وبحرمة أنبيائك ورسلك، وعبادك الصالحين، وبحرمة أجدادنا الأشراف الذين ضحوا بأرواحهم، وأموالهم في سبيل الإسلام، أن تخرجنا برحمتك التي وسعت كل شيءٍ من هذا المستنقع الذي غرقنا فيه، وأن تهدينا إلى سبل الاستقامة والسلامة والهداية. اللهم لا تعاملنا بغضبك وعدلك، وعاملنا برحمتك وإحسانك. فها نحن يا رب نقف على أعتابك معترفين بذنوبنا، وملتجئين إلى عفوك ومغفرتك.

السلف الصالح وحسن الظن بالله .

١. كان سعيد بن جبير ﷺ يدعوا ربه فيقول: «اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك وحسن الظن بك»

٢. وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: «والذي لا إله غيره ما أُعطي عبد مؤمن شيئاً خير من حسن الظن بالله عز وجل ، والذي لا إله غيره لا يحسن عبد بالله عز وجل الظن إلا أعطاه الله عز وجل ظنه ؛ ذلك بأن الخير في يده»

٣. وسفيان الثوري رحمه الله كان يقول : «ما أحب أن حسابي جعل إلى والدي؛ فربي خير لي من والدي»

٤. وكان يقول عند قوله تعالى: «وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» أحسنوا بالله الظن .

٥. وعن عمار بن يوسف قال : «رأيت حسن بن صالح في منامي فقلت : قد كنت متمنياً للقائك؛ فماذا عندك فتخبرنا به؟ فقال: أبشر! فلم أرَ مثل حسن الظن بالله عز وجل شيئاً ».

ونفس وما سوّاها

خديجة يغنلر

تقول أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها:

"لما كانت ليلة من الليالي قال لي رسول الله ﷺ: "يا عائشة، ذريني الليلة أتعبد لربي". قلت: والله لأحب قربك، وأحب ما يسرك.

فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء، ثم قام يصلي فقرأ من القرآن وجعل يبكي حتى بلغت الدموع حقويه، ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه، وجعل يبكي ثم رفع يديه وجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض. فأتاه بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال:

يا رسول الله، لمَ تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال رسول الله ﷺ: "أفلا أكون عبداً شكوراً، لقد أنزلت عليَّ الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها"، ثم قرأ قول الله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩٠ – ١٩١)

فهذا هو الكلام العظيم الذي جعل قلب النبي عليه الصلاة والسلام يضطرب، وأدمع عينيه المباركتين! فماذا كان السر الذي أبكى رسول الله ﷺ بهذه الصورة ودفعه إلى قول: "ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها"؟ هل هو عدم تفكرنا وتبلد مشاعرنا؟ أم هو أخطاؤنا الكثيرة التي ارتكبناها؟ أم عدم شكرنا للنعم الكثيرة التي تفضل ربنا بها علينا، أم الثغرات في توحيدنا وإيماننا؟ أم أنه عدم تسليمنا القلبي بقضاء الله وقدره خيره وشره عندما نقول آمنا به بلساننا؟ أم إنه إصرارنا على الخطايا والمعاصي مع علمنا بأننا في دار الامتحان؟ أم هو غفلتنا عن الحساب الذي سوف نقدمه بين يدي الله تعالى مالك يوم الدين؟

تُرى ما الذي أبكى رسول الله ﷺ هكذا؟

أهو ابتلاؤنا بمرض الأنانية والتفكير بالذات، والتغافل عن الآخرين من حولنا؟ أم هو ابتعادنا السريع عن الرزق الحلال، وافتتاننا بالرفاهية والمظاهر التي سحرتنا؟ أم هو بيوتنا الفاخرة

التي تضاهي القصور؟ أم هو تغافلنا عن سماع كلام الله تعالى الداعي إلى عدم الإسراف، إذ يقول: (إن الله لا يحب المسرفين)؟ أم كثرة إضاعتنا لأوقاتنا بأمور لا طائل فيها، وإفناؤنا لعمرنا باللهو والابتعاد عن الاستقامة؟ أم هو عباداتنا التي لا تتجاوز أن تكون قشوراً ومظاهر فارغة من الداخل من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج؟ أم عيوننا التي تنظر ولا ترى، وآذاننا التي تصغي ولا تسمع؟ أم قلوبنا التي لا ترتجف بتلاوة كلام الله، وكأنها غلفت وأُقفلت بعشرات الأقفال؟ أم عبوديتنا السطحية الناقصة التي نخرتها نفوسنا والشيطان؟ أم أحوالنا التعيسة المفجعة نحن أمة آخر الزمان؟

لقد قال النبي ﷺ ذات مرة لأصحابه الكرام: "والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم". من الواضح أنه قد رأى أحوال أمته الكارثية المفجعة من بعده. لقد سمع الدنيا قبل أربعة عشر قرناً وهي تنادي على الناس في آخر الزمان من الجهات الأربعة: "هيت لكم". لقد علم عجز أمته في الجهاد الكبير المتمثل بالمحافظة على القلب، والنجاة من النار.

فتعال أيها الإنسان، تعال وأمسك بيد الرأفة الممدودة إليك من النبي عليه الصلاة والسلام. تعال ولا تدفع النبي إلى مزيد من البكاء والدموع..

يا أيها الإنسان الذي شرَّفَكَ الله تعالى على الكائنات، وخلقك في أحسن تقويم، يا صاحب العقل والإدراك، يا خليفة الله في الأرض! فكِّرْ لمَ خُلقت، ولمَ أُرسلت إلى هذه الدنيا؟ لمَ وُضِعَ هذا النظام العظيم الذي يسود في الكون، وجميع المخلوقات، لمَ وُضِعَ كل ذلك في خدمتك؟ إلى أين تسير؟ فكِّر وأَنِر بنور الوحي عقلكَ وقلبك الذي أبكى النبي.

حياتك ليست إلا أيام معدودات. فالأمس قد جاء ومضى ولم يبق إلا حسابه، وأما الغد فمجهول فقد يأتي وقد لا يأتي. فاشغل نفسك بيومك هذا، ووقت العبودية هو هذا الوقت، فحذارِ من تأجيل عبوديتك. فكما أنك جئت إلى هذه الدنيا دون أن يسألك أحد، فإنك سوف تُؤخَذ من هذا العالم في وقت مجهول دون أن تُستَشَار. سوف تفارق هذه الدنيا التي لم تستطع أن تجد فيها متسعاً لنفسك، ولآمالك، وخيالك، ومخاوفك، وما قمت به من أعمال وما لم تتمكن من القيام بها. سوف تفارقها لتتمدد في مكان لا تتجاوز مساحته متراً مربعاً واحداً. لا شك أن الأعمال التي خططت لإكمالها وإنهائها سوف تبقى ناقصة من بعدك، وأن الندامة في القبر الذي فتحت عينيك فيه سوف تسيطر على كل كيانك. ولكن لا أنت تستطيع العودة إلى الدنيا، ولا الدنيا تبحث عن وجودك! فلن يبقَ لك إلا يديك التي تمدهما إلى الملائكة، فهل هي فارغة أم ممتلئة؟ أيها الإنسان الذي تخشى من الحساب، اعلم أنك إن لم تدقق في حساباتك، وأضعتَ المكيال فإنك مقبل على الخسران المبين في الحياة الأبدية... ففكِّرْ بحياتك القصيرة هذه على ضوء الوحي الإلهي، وأدرِكْ حقيقتها، وابذلْ جهدك لعيش حياتك وفقه، فالله تعالى قد سخَّرَ لك كل شيءٍ ومكَّنَك من معرفة الخير والشر:

﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا. وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: ٦ – ٨)

أيها الإنسان الذي أكرمكَ الله بأسمى المزايا والخصال، أيها المسافر في رحلة إلى أعلى عليين، أدرِكْ نفسكَ قبل أن تفوتك الفرصة، اسجدْ لربك، ضعْ جبهتك على الأرض، وأقررْ بلسانك وصدِّقْ بقلبك، وادعُ: "يا رب، إنك لم تخلق هذا الكون عبثاً، فها نحن نسبحك، واستسلمنا لإرادتك. يا رب، نشكرك على كافة نعمك التي أكرمتنا بها من إحسانك وجودك. اللهم إنا عاجزون فاغفر لنا واعفُ عنا، وطهِّرْنا، وارحمنا، واهدِنَا إلى سواء السبيل".

أولوياتنا وأدبياتنا في طريق رحلتنا

د. فؤاد آكبنار

إن طريقنا الذي نسير عليه يدلنا على أن نبدأ بكل فعل وقول باسم الله الرحمن الرحيم، وأن نحمد الله رب العالمين، وأن نعلم بأن الله مالك يوم الدين، وأن نعبده ونستعين به وحده، وهو الطريق الذي يقودنا إلى عدم النسيان بأن الله الرحمن الرحيم هو الذي أوجب علينا الدعاء للاهتداء إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم، والابتعاد عن سبيل المغضوب عليهم والضالين.

وبذلك فإن الإنسان يتعرف إلى ربه الذي شرع للمؤمنين أبواب المعرفة، وللمذنبين أبواب المغفرة إلى يوم القيامة، ويعود إلى طبيعته وفطرته الأصلية فيعامل المخلوقات بالرحمة والشفقة وبمشاعر العجز النابعة من كونه عبداً ضعيفاً مملوكاً لله تعالى. وإلا فإن النفس المتمردة للشخص الذي لا يدرك بأنه غارق في متاهات الأنانية لن تعرف حدوداً للظلم وفساد الأخلاق، وسوف تفسد حياة الفرد والمجتمع.

ينبغي أن تكون أولويتنا العلم بأن الله الفتاح هو الذي أكرمنا بسورة الفاتحة الجليلة، وشرع لنا بالقرآن الكريم أبواب الهداية إلى نهاية الحياة. وينبغي أن يكون من أدبياتنا الاغتراف قدر الإمكان من هذه الآيات التي تُعد مفتاح الحياة الدنيا والآخرة، ثم العمل ضمن دائرة الأسباب والحلال مع التذكر الدائم ليوم الحساب، وطلب نعم الدنيا والدار الآخرة من صاحب الملك الحقيقي.

وإلى جانب تمتعنا بموهبة التعلم مع مجيئنا إلى الدنيا، فإننا نحاول مع مرور الزمن نتيجة للحاجة أو دافع الاطلاع والاستكشاف التعلمَّ وفهم أنفسنا ومحيطنا من خلال الموجودات المادية أو الحوادث التي تجري من حولنا، ونبذل جهوداً لجعل الحياة ذات معنى ومغزى.

إذاً أتينا إلى هذا العالم الموجود من قبلنا ضيوفاً فيها، وذلك لأن الأشياء المحيطة بنا والتي نود الاطلاع عليها وامتلاكها ليست ملكنا. فمن يُعمِل عقله عندئذ سوف يحاول جاهداً البحث عن أسئلة تطرق أبواب العقول والألباب مثل:

من أنا؟ ومن أين أتيت؟ ولمَ أنا هنا؟ وإلى أين أنا ذاهب؟ ويعلم صاحب الإدراك السليم بأن عالم الموجودات والنظام العظيم الذي يعيش فيه- بما في ذلك عالم روحه وبدنه- قد خُلق بقدرة وبعلم واسع يفوق تصور العقل.

إن أولويتنا بوصفنا مؤمنين العلمُ بأن صاحب هذه القدرة والعلم اللامتناهي والذي يحيط علمه بكل شيء إنما هو الله العليم جل جلاله، وعدم نسيان ذلك أبداً. وينبغي أن يكون من أدبياتنا الدعاء بقولنا: "رب زدني علماً" مع الإدراك التام بأنه بعلمه الأزلي والأبدي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ثم العمل بالعلم، ونصرة الحق، والتجمل بلباس التواضع، وبذل الجهد للوصول إلى حال من الرِّقَّة فلا نلحق أدنى أذى بالمخلوقات، وذلك ليس باليد واللسان فقط، بل حتى بالقلب والنظرات.

ينبغي أن يكون من أولوياتنا العلم بأن الله القابض هو الذي يقبض أرواحنا وهو الممتحن لنا، إلى جانب عدم الغفلة عنه أبداً مع الإدراك التام بأنه الذي أكرمنا بنعم مادية ومعنوية لا تُحصى، وقد خلقنا في دنيا الامتحان؛ ومن غير أن ننسى بأننا سوف نبتلى بالخوف، والجوع، ونقص من الأموال والأنفس، وأننا مبشرون بالمكافأة إن صبرنا على هذا الابتلاء، وكذلك ضرورة القول بالقلب واللسان عند التعرض للمصائب: "إنا لله وإنا إليه راجعون".

وينبغي أن يكون من أدبياتنا بذل الجهد لتسليم أنفسنا طاهرين أنقياء لمن أودع لدينا نعمتَي الجسد والروح، أي تسليم أنفسنا لصاحب الأمانة، فنشكر إذا أصبنا نعمة، ونصبر إذا أصابتنا مصيبة.

ينبغي أن يكون من أولوياتنا العلم بأن الله الباسط كما أنه يغدق على عباده من نعم الدنيا المختلفة فإنه كذلك يفتح نوافذ الأنوار للعبد الذي يلجأ إلى خالقه حتى عندما يتعرض لأشد الابتلاءات وتخيم عليه سُحب الهم والكدر، وتسود من فوقه الآفاق ويضيق صدره وروحه، يلجأ إليه قائلاً:

"أنت ربي ووكيلي الذي أتذلل على أعتابه، مالي من معين ولا ملاذ سواك".

وينبغي أن يكون من أدبياتنا الرغبة والسعي لإنارة قلوبنا بأسرار اسم الله الباسط واسع الرحمة، والحلم، واللطف، والذي بمقتضى اسمه الباسط يقبض عن طريق ملائكته روحَ عبده بكل محبة مع تبشيره في لحظة الموت بالبشارة الواردة في كتابه العزيز:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ. نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ (فصلت: الآية، ٣٠ - ٣٢)

ملاحظة: تم إعداد هذه المقالة بالاقتباس من مؤلفات الأستاذ الجليل عثمان نوري طوبَّاش.

عثمان نوري طوباش

ثمن الجنّة

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١١١)

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان في أحسن تقويم، واختارنا من بين الناس جميعاً لنكون من أهل الإيمان، واصطفانا من بين أهل الإيمان وجعلنا من أمة رسوله الكريم سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. وإننا لم ننل هذه النعم العظيمة التي لم ندفع ثمنها إلا بلطف الله تعالى وإحسانه.

نعم؛ لقد جئنا إلى هذه الدنيا دون بذل أي مقابل، غير أننا سوف نسير إلى الآخرة ونحن ندفع الثمن، لأن الله تبارك وتعالى يأمرنا بالشكر على نعمه الكثيرة التي لا تُعد ولا تحصى، إذ يقول في كتابه العزيز:

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا...﴾ (النحل: ١٨)

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨)

وهذه حقيقة تدل على أن ادعاء ملكية شيءٍ لم يُدفع ثمنه ضرب من العبث، ومناقض للعقل، وأن أثمن ما نملك وينبغي لنا دفع ثمنه في هذه الدنيا بوصفنا مؤمنين إنما هو إيماننا.

ونحمد الله تعالى ونشكره على أن شرفنا بالإيمان الذي هو مظهر من مظاهر صفة الله "الهادي".

إلا أن المولى ﷻ يقول لنا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

فإذا ما أمعنا النظر في هذه الآية نجد أن ربنا سبحانه وتعالى لا يقول لنا: "سوف تموتون وأنتم مسلمون"، بل يستعمل أسلوباً آخرَ فيعلمنا بأنه لا ضامن لتكون آخر لحظات حياتنا على الإيمان، وأننا قد نزل وننحرف عن الصراط المستقيم في أي لحظة.

فيأمرنا بأن نموت على الإيمان، لأن حياة الامتحان هذه لا نعيشها إلا مرة واحدة، ولا نستطيع أن نعيدها ولا نعوِّض عنها.

فعلينا في هذه الحال أن نحمي إيماننا، ولا نساوم عليه، ونتمسك به في جميع الظروف والأحوال حتى لو كان الثمن التضحية بأرواحنا.

إن أصعب ما في الحياة القدرةُ على دفع ثمن نعمة الإيمان، ذلك أنه ليس لهذه النعمة حد واضح. فعلينا بذل أقصى جهدنا وكل استطاعتنا في سبيل الله تعالى، والتعلق برجاء رحمته ومغفرته إلى آخر نَفَس في حياتنا. لأن الإيمان لطف وإحسان من الله تعالى، وهذا الامتحان الذي نحن فيه إنما هو مقياس لدرجة صحة الإيمان، وأما الحفاظ على الإيمان الواجب على المؤمن بالعبادة، والتقوى، والإحسان، والصبر، والشكر، والتضحية، والعمل، والتسليم، فإنما هو ثمن نيل المكافآت الإلهية بلطف الحق سبحانه وتعالى وإحسانه. وكأن الله تبارك وتعالى يطالبنا بثمن كي ندرك قيمة نعمة الإيمان التي أنعمها علينا.

ويبين الحق سبحانه وسيلة دفع هذا الثمن بقوله:

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...﴾ (التوبة: ١١١)

إذاً إن دنيا الامتحان هذه التي نعيش فيها كالسوق التي سوف نشتري فيها الجنة، وأكبر رأسمال نملكه في هذه السوق أنفسنا وأموالنا. وهنا يرد في الذهن التساؤل التالي: مَن المالك الحقيقي للنفس والمال؟ ومَن الذي منحهما لنا؟. في الحقيقة ليس كل ذلك إلا من إحسان الله تعالى، وعليه فإننا نجد أنفسنا مرة أخرى في امتحان نلتزم فيه بتسليم ذلك الإحسان إلى المولى ﷻ.

ونرى في القرآن الكريم أمثلة كثيرة لهذا الأمر: فهذا سيدنا إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء قد امتُحن بنفسه، وماله، وأولاده. ورضي في سبيل الدفاع عن دين التوحيد أن يُلقى في تلك النار العظيمة التي أوقدها نمرود، فتحولت النار إلى بساتين خضراء. وضحى بماله في سبيل الله تعالى لينال بركتَه، وارتضى أن يقدم ابنه قرباناً لله تعالى، فما كان من الحق سبحانه وتعالى إلا أن ردَّ له ابنه، وأنزل من الجنة أضحية يوفي بها بوعد؛ فصار خليل الله، ووصل إلى مرتبة أهل الله.

وما أكثر قصص أبطال الإيمان الذين باعوا أرواحهم وأموالهم ثمناً للجنة التي وعدهم بها الله تعالى، وقد ذكر لنا ربنا ﷻ في القرآن الكريم بعضاً من هذه القصص، منهم أصحاب الأخدود الذين ألقي بهم في نار ملتهبة، وحبيب النجار الذي رجمه القوم الظالمون، وسحرة فرعون الذين قُطِّعَت أيديهم وأرجلهم من خلاف وصُلبوا في جذوع النخل لإيمانهم بسيدنا موسى عليه السلام، ولم يطلبوا من الحق سبحانه وتعالى أن ينجيهم من هذا الظلم والعذاب الشديد الذي تعرضوا له، وأن يبلغهم السلامة في الدنيا. لقد كان رجاؤهم الوحيد أن يموتوا على الإسلام دون يساوموا على إيمانهم، وأن يخرجوا من هذه الدنيا وقد فازوا بالآخرة، لهذا كانوا يتضرعون إلى ربهم سبحانه وتعالى بقولهم:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٦)

كي لا يتعرضوا للحظات الضعف في إيمانهم، فانتقلوا إلى جوار ربهم شهداء في سبيله.

وإذا ما نظرنا إلى عصر رسول الله فإننا نجد الإيمان نفسه، فقد عانى الصحابة الكرام وتحملوا آلاماً عظيمة من أجل دفع ثمن نعمة الإيمان. إذ تعرضوا في مكة لسنوات طويلة للظلم والتعذيب وشتى أنواع الحصار والتجويع والمقاطعة. وعندما هاجروا إلى المدينة المنورة تاركين وراءهم منازلهم وأموالهم كي يحافظوا على الإيمان الذي في قلوبهم، سعوا من أجل التوحيد وإثبات الوجود في جبهات ثلاث تمثلت بالمشركين من جهة، والمنافقين من جهة ثانية، واليهود من جهة ثالثة.

يقول خباب بن الأرت ﷺ الذي يُعد واحداً من الصحابة الأكثر تعرضاً لأشد أنواع العذاب والتنكيل في سبيل الإيمان: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسِّد بردةً له في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو محمر وجهه، فقال: "كان الرجل فيمن قبلكم يُحفَر له في الأرض، فيُجعَل فيه، فيُجَاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه. والله ليُتِمَّنَّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون!". (البخاري، مناقب الأنصار، ٢٩؛ المناقب، ٢٥؛ الإكراه، ١)

ويقول الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة ﷺ - وكان من أهل المدينة الذين حضروا بيعة العقبة-: بعد أن بايعنا رسول الله ﷺ على أن نعبد الله تعالى وحده ولا نشرك به شيئاً، ونمنع رسول الله ﷺ مما نمنع منه أنفسنا، سألنا النبي عليه الصلاة والسلام، فقلنا: يا رسول الله، ما لنا إذا فعلنا ذلك؟، فقال رسول الله ﷺ: "الجنة!"، فقلنا: ربح البيع! لا نقيل ولا نستقيل. (انظر: ابن كثير، التفسير، ٢، ٤٠٦)

وها هو عبد الله بن رواحة ﷺ قد أتم صفقة بيع الجنة الرابحة في غزوة مؤتة. فلما تلقى بشارة الشهادة من رسول الله ﷺ، وتأكد من موته في المعركة لم تظهر أي علامات امتعاض أو تردد على وجهه، لا بل انضم إلى المعركة بطمأنينة وإقدام وتسليم كبير لله تعالى. وتبرع بكل ماله لبيت المال، وأوقف روحه في سبيل الله تعالى لكي يصد أذنه عن الاستماع إلى وساوس نفسه التي تريد إظهار حلاوة الدنيا ومرارة الموت، فاستشهد في تلك الغزوة ليطير إلى جنان الخلد.

لقد سار كثير من الصحابة تحت شعار: "ليكن قبري حيثما وصلت قدماي"، فتوجهوا إلى جهات الأرض الأربعة لنشر الدين الحق. وبلَّغوا هذا الدين في البلاد التي وصلوا إليها بأحوالهم وأقوالهم، وختموا على القلوب بختم التوحيد ليخرجوها من الظلمات إلى النور، وبذلك صدقوا البيعة التي بايعوها لله ولرسوله.

نزلت الآية القرآنية المباركة التي ذكرناها سابقاً في بيعة أهل المدينة "الأنصار" للنبي ﷺ، إذ قال الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١١١)

وكان جميع الصحابة الكرام يختبرون إيمانهم على أساس هذه الآية الكريمة، لأنهم كانوا يرون مختلف الأحداث دائماً من نافذة الآخرة بوَجدٍ إيماني عظيم. وأدركوا- كما ينبغي- الحقيقة التي أخبر عنها النبي عليه الصلاة والسلام بقوله في الحديث الشريف:

"اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة." (البخاري، الرقاق، ١)

ولهذا لم تكن الشدائد والآلام والاضطرابات الدنيوية المؤقتة أمراً ذا بال عندهم، بل عدُّوا كل ضروب المعاناة وأحوال الشدة والضيق التي مروا بها في سبيل الله تعالى نعماً ورحمة إلهية، آملين بالفوز بصحبة رسول الله ﷺ في الآخرة كما فازوا بها في الدنيا.

كان الصحابي سعد بن خيثمة أحد النقباء الاثني عشر الذين تم اختيارهم في بيعة العقبة. ويوم بدر اقترع سعد وأبوه خيثمة لخروج أحدهما في تلك الغزوة، فكانت القرعة لسعد، فقال أبوه: يا بني، آثرني اليوم. فقال سعد: يا أبت، لو كان غير الجنة فعلت. فخرج سعد إلى بدر فقُتِل بها، وقُتِل أبوه خيثمة يوم أحد. (ابن حجر، الإصابة، ٣، ٤٧، رقم: ٣١٥٦)

ويقول الصحابي جابر بن عبد الله رضي الله عنه: لقيني رسول الله ﷺ فقال: "يا جابر، ما لي أراك منكسراً؟" فقلت: يا رسول الله، استشهد أبي وترك عيالاً ودَيناً. قال: " أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟"، قلت: بلى يا رسول الله! فقال: "ما كلَّم الله تعالى أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحًا ، فقال: يا عبدي تمنَّ عليَّ أُعطِك. فقال أبوك: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية. فقال الرب ﷻ: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون". (الترمذي، التفسير، ٣/ ٣٠١٠)

فأنزل الله تعالى قوله:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩- ١٧٠. ابن ماجه، المقدمة، ١٣/ ١٩٠)

وهكذا فإن الصحابة الكرام قد تحركوا بهذا الإيمان لشراء الجنة حاملين دين الله تعالى، فتخلوا عن راحتهم ورغد عيشهم وانتشروا في شتى أصقاع العالم. فبلغوا حدود الصين، ودخلوا أفريقيا، ثم وصل من جاء بعدهم خلال مدة قصيرة إلى المحيط الأطلسي، وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى دخلوا إسبانيا.

وأما الصحابي أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه فقد وصل مرتين إلى القسطنطينية [إسطنبول]، لأنه كان يخشى من أن يكون مقصراً في بذل جهوده والتضحية بنفسه في سبيل الله تعالى، فيكون من الذين يلقون آخرتهم بأيديهم إلى التهلكة. فانضم إلى الجيش المتجه نحو فتح القسطنطينية وقد تجاوز الثمانين عاماً من عمره شوقاً وأملاً بنيل بشارة رسول الله ﷺ حينما قال: "لتفتحن القسطنطينية". (أحمد، ٤، ٣٣٥؛ الحاكم، ٤، ٤٦٨/ ٨٣٠٠)

وتوفي رضي الله عنه في المرة الثانية أمام أسوار تلك المدينة، وقال في آخر أنفاسه موصياً: "ادفنوني في أقصى مكان تصل إليه أقدامكم حتى يذهب من يأتي بعدي من المسلمين أبعد من ذلك المكان". وبذلك فقد حدد ببدنه- كما بحياته- الهدفَ للأجيال المؤمنة التي سوف تأتي من بعده، وترك الآفاق الرحبة للجهود الكبيرة التي يبذلها المسلم الحقيقي ميراثاً لتلك الأجيال.

يقول جابر رضي الله عنه:

لما حضر أحد، دعاني أبي من الليل، فقال: ما أُرَاني إلا مقتولاً في أول من يُقتَل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أترك بعدي أعزَّ عليَّ منك غير نفس رسول الله ﷺ، فإن عليَّ دَيناً فاقضِ، واستوصِ بأخواتك خيراً.

[وجاء في رواية أخرى أنه عبر عن رغبته بمشاركة ابنه أيضاً بهذه الحماسة الإيمانية، وذلك بقوله: يا جابر، لولا بناتي في البيت لأردت لك الشهادة.]

يقول جابر: فأصبحنا، فكان أول قتيل، ودُفِنَ معه آخر في قبر، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر، فاستخرجته بعد ستة أشهر، فإذا هو كيوم وضعته هُنيَّة غير أُذنِه!

(البخاري، الجنائز، ٧٨)

إن مما لا ريب فيه أن الصحابي الذي يمثل القدوة الفريدة، ويتربع على عرش التضحية والعطاء، والذي يسمو بقلبه بين تلك القلوب التي بلغت مرحلة الاطمئنان والسلام الداخلي بذكر الله تعالى، وبين تلك النفوس التي تخلت عن سائر النعم الدنيوية وبلغت ذروة رضا الله تعالى، إنما هو سيدنا أبو بكر ﷺ.

ذات يوم قال رسول الله ﷺ:

"ما نفعني مالٌ قط ما نفعني مالُ أبي بكر".

فلما سمع أبو بكر ﷺ كلمات الثناء هذه التي نطق بها سيد الخلق بحقه، أدمعت عيناه، وقال: "وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله!" (ابن ماجه، المقدمة) . معبراً بذلك عن أنه قد جعل كل ثروته فداءً لرسول الله ﷺ. لقد أتى أبو بكر ﷺ في كثير من الأحيان بكل ماله ووضعه بين يدي رسول الله ﷺ، فكان إنفاقه كإنفاق النبي عليه الصلاة والسلام الذي كان ينفق ويتصدق صدقة مَن لا يخشى الفقر.

وإذا ما سأله رسول الله ﷺ: "يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟" كان يقول بكل طمأنينة وسكينة قلب: أبقيت لهم الله ورسوله!. (أبو داود، الزكاة، ٤٠)

وأما الصحابي الكريم الآخر الذي بذل روحه وماله بسخاء لا حد له في سبيل الله تعالى ليفوز بالآخرة فهو عثمان بن عفان ﷺ. لما هاجر هذا الصحابي المبارك الذي كان مضرب المثل في الكرم والحياء إلى المدينة، رأى معاناة المسلمين في شأن الماء، إذ كانت مياه آبار المدينة شديدة المرارة، ولم يكن هناك بئر فيها ماء عذب حلو سوى بئر رومة التي كان يملكها يهودي. وكان هذا اليهودي يكسب رزقه من بيع ماء هذه البئر، فاشترى عثمان ﷺ هذه البئر بثمن كبير بإشارة من النبي عليه الصلاة والسلام.

وسارع عثمان ﷺ إلى وقفها في سبيل الله دون أي تردد. ومما زاد فضله هذا فضلاً أنه كان يقف مع جميع الناس وينتظر دوره من أجل الحصول على الماء من هذه البئر. وجاء في إحدى الروايات أن الآيات الكريمة الآتية نزلت في هذا العمل العظيم الذي أقدم عليه عثمان ﷺ، وهي قول الله تعالى:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: ٢٧– ٣٠)

ذات يوم قال رسول الله ﷺ:
"ما نفعني مالٌ قط ما نفعني مالُ أبي بكر".
فلما سمع أبو بكر رضي الله عنه كلمات الثناء هذه التي نطق بها سيد الخلق بحقه، أدمعت عيناه، وقال:
"وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله!"
معبراً بذلك عن أنه قد جعل كل ثروته فداءً لرسول الله ﷺ.

ولما اتسعت رقعة الإسلام وكثر القادمون إلى المدينة، بدأ المسجد النبوي يضيق بالناس فكان لا بد من توسيعه. ومرة أخرى أخذ عثمان ﷺ هذه المهمة على عاتقه بإشارة من رسول الله ﷺ. وقد نزل في ذلك قول الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (التوبة: ١٨)

وكذلك لما ضاقت الأحوال بالمسلمين في غزوة تبوك، ولم يجدوا ما يركبوه للالتحاق بالجيش، واضطر كل اثنين أو ثلاثة من المجاهدين إلى التناوب على ركوب دابة واحدة، قام هذا الصحابي الجليل بتجهيز ثلاثمئة ناقة وأهداها إلى جيش المسلمين.

ولما قَحط الناس في زمن أبي بكر، قال الخليفة لهم: إن شاء الله لا تمسون غداً حتى يأتيكم فرج الله، فلما

كان صباح الغد قدمت قافلة عثمان، فغدا عليه التجَّار، فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه وسألوه أن يبيعهم قافلته، فسألهم: كم تربحونني؟ قالوا: العشرة اثني عشر، قال: قد زادني، قالوا: العشرة خمسة عشر، قال : قد زادني، قالوا: من الذي زادك ونحن تجَّار المدينة؟ قال: إنه الله، زادني بكل درهم عشراً، فهل لديكم أنتم مزيد؟ فانصرف التجَّار عنه وهو ينادي: اللهم إني وهبتها فقراء المدينة بلا ثمن وبلا حِساب. (سيد حسين العفاني، ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله، ج٢، ص٢٥١)

واستُشهد رمز السخاء عثمان بن عفان الذي حمل مسؤولية الأمة على كاهله، مظلوماً في خلافته ليصبح من الذين ضحوا في سبيل الآخرة واشتروا الجنة بأرواحهم.

وإذا نظرنا إلى المدينة فإننا نجد بين الأنصار من أصحاب الكرم والسخاء والساعين إلى دفع ثمن الجنة ما لا يقلون شأناً عن المهاجرين، ومن هؤلاء أبو طلحة الأنصاري ﷺ. لقد كان أبو طلحة من أكثر الأنصار امتلاكاً للنخل، وكان بستان بيرحاء الذي يقع قرب المسجد النبوي من أحب أمواله إليه، وكان النبي ﷺ يدخل إليه كثيراً فيشرب من مائه العذب، ويغتسل به، ويأكل من ثماره، ويستظل تحت أشجاره.

ولما نزل قول الله تعالى:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٩٢)

ذهب أبو طلحة ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فقال له: إن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله ﷺ:

"بخٍ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح!". (البخاري، الزكاة، ٤٤؛ مسلم، الزكاة، ٤٢، ٤٣)

إذاً، كانت هذه آفاق رؤية الصحابة الكرام، حيث كانوا يسارعون إلى قول: **﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾** (البقرة: ٢٨٥)

في كل آية تنزل، ويخضعون لها بكل جوارحهم، ويبذلون جهدهم لتنفيذها ابتغاء نيل رضا الله تعالى. ولذلك قال جابر ﷺ: "لم أعلم أحداً من المهاجرين والأنصار إلا حبس مالاً من أمواله صدقةً مؤبدةً – أي جعله وقفاً –". (ابن قدامة، المغني، ٥، ٥٩٨)

وقد عاش العثمانيون بهذه الروح من البذل والعطاء، وحوَّلوا بلادهم إلى ما يشبه الحضارة الوقفية. لأنهم كانوا من المؤمنين الصالحين الذين وضعوا مبدأ "لا عيش إلا عيش الآخرة" نصب أعينهم، وتحركوا من منطلق التضحية بالفاني للفوز بالباقي، وبذلوا جهدهم لدفع ثمن نعمة الإيمان.

إن كل حضارة تبني نموذج الإنسان الخاص بها. وإننا- أحفادَ أولئك الأجداد العظام- نقف أمام مسؤولية عظيمة وجهاً لوجه. إذ إننا أينما ولَّينا وجوهنا اليوم نجد المسلمين يعانون من الشدة والضيق في كل بقاع الأرض. وإن دولتنا تركيا تبذل جهوداً كبيرة للتحدث باسم العالم الإسلامي الذي يتعرض لشتى أنواع الظلم والاضطهاد، وللدفاع عن حقوق الأمة.

وها هي أمتنا التي أحقَّت الحق عبر العصور، وحمت المظلومين من الاضطهاد والظلم، تفتح اليوم صفحة ذهبية من صفحات التاريخ. وينبغي لنا جميعاً أفراداً وجماعات دعم جهود هذه القضية. وفي هذا الإطار نجد أنفسنا مجبرين على أن نجعل من أنفسنا كالأنصار لإخواننا السوريين الذين اضطروا للجوء إلى بلادنا، وأن نقدم لهم التضحيات التي تقتضيها الأخوة الإسلامية.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا جميعاً ممن يشعرون بثقل الأمانة التي يحملونها على أكتافهم، ومن الذين يشعرون في قلوبهم بكرب المكروبين والمحتاجين سواء من الناحية المادية أم المعنوية...آمين!.

كيف تعرفون

الرابطة؟

نسليهان نور تُرك

إنها طريقة للوصول إلى باب المراقبة
ذلك البريء الذي يُلطم من الغادي والبادي

في يوم من الأيام جاء رجل إلى تكية وقال للشيخ:
"أريد أن أصبح طالباً عندك".
فسأله قائلاً:
"يا بني، هل عشقت ذات مرة؟"،
فقال الرجل: "لا".
فصرفه الشيخ قائلاً:
"إذاً اذهب وابحث عن باب آخر".

ذهب الرجل؛ إلا أن عقله وقلبه بقي عند الباب. وفي اليوم التالي جاء وطلب الأمر ذاته، فسُئِلَ السؤال ذاته، وأجاب الإجابة نفسها، وقيل له اذهب وابحث عن باب آخر، وظل على هذه الحالة جيئة وذهاباً لمرات عديدة. ولما اشتد إصراره وتصميمه على مطلبه قال له الشيخ:

"يا بني، ما دمت أنك مصر لهذه الدرجة، فكِّرْ ملياً هل سبق أن أحببت شيئاً؟"

فقال الرجل دعني أفكر، ثم انصرف. وظل يقلب فكره الليل كله. وفي ساعات الصباح الأولى صرخ: "وجدتها!" ثم أسرع إلى باب التكية، وهو يقول:

- لقد أحببت، لقد أحببت؛ أجل لقد أحببت بقرة صفراء كانت في القرية.

كنت أحلب ضرعها، وأمسح على ظهرها. وكنت أتكدر وأحزن عندما تمرض، وأفرح إذا شفيت وتعافت! كنت أحب تلك البقرة الصفراء كثيراً.

فتبسم الشيخ من هذا الجواب، وقال له:

"ما دام الأمر كذلك، فتعال إلي!".

لأن المحب يفهم الحالة، والمحب يسير على الطريق. والمحبون هم أفضل من يمكنهم فهم الرابطة، لأن الرابطة رباط مضيء يتولد من المحبة، فهي اتحاد بين المحب والمحبوب بالحال، والفكر، والإحساس.

إن الله ﷻ موجود وواحد أحد، أنزل على الناس الكتب السماوية ليدركوا هذه الحقيقة ويعرفوها. لقد جاءت كل آية من آيات هذه الكتب بواسطة مَلك، ولم تُنزل على كل الناس، وإنما سُلِّمَت لقلوب الأنبياء وحدهم دون غيرهم. وكُلِّف الأنبياء بتبليغ هذه الآيات إلى الناس، فعاش الأنبياء حياتهم بنظام وانضباط والتزام فائق بالأمانة والصدق للقيام بالواجب الذي كُلفوا به بحق. ومع أن الله تعالى قادر على تعليم الناس مباشرة دون حاجة إلى أسباب ووسائط، فإن إرادته اقتضت بأن يجعل الإنسان المخلوق سبباً ووسيلة لتعليم الآخرين.

وعلى ذلك يجب الانتباه إلى الأمر الآتي واستيعابه بشكل جيد: التربية والتعليم بوسيلة ما سنةٌ من سنن الله تعالى. فالنظر إلى هذه الوسيلة على أنها مستقلة بذاته ومتميزة عن الله يُعد إما غفلة أو خيانة متعمدة. إن التمسك أو اللجوء إلى الوسائل هو من عادات أو سنن الكون، والمنزل الذي سوف يُوصَل إليه بواسطة ما إنما هو وحدانية الحق سبحانه وتعالى.

بعد رحيل آخر الأنبياء سيدنا محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى أُكرِم الناس في كل عصر من العصور الإسلامية بمرشدين كاملين، وقد جُعل هؤلاء المربون والمعلمون المكلفون بتبليغ القرآن الكريم والسنة النبوية بحالهم ومقالهم، سبباً في بلوغ الكثير من القلوب مراحلَ النضج والكمال. ولكل واحد من هؤلاء المعلمين مجموعة من الطلبة مسؤول عنهم، وبغض النظر عن الطريقة التي يتبناها كل معلم ومربي فإن المطلب المشترك لهم من طلبتهم إنما هو التسليم كي يتربوا على الطريقة بأقصى سرعة. ويكون التسليم في الغالب من نصيب الطالب المحب. فالمحبة تقوي الرابطة، وتقوي استيعابها. الرابطة سائق يدفع الطالب إلى التلون بلون شيخه، والطالب يتحلى بحال شيخه بنسبة المحبة التي يشعر بها تجاهه. وهذه حقيقة لا يمكن أن يفهمها بسهولة إلا المحبون: الرابطة هي حق، وحالة لا غنى عنها لكل قلب مليء وفياض بالمحبة.

لا يمكن الذهاب إلى مدينة بسفينة مدينة أخرى، ولا يمكن خوض غمار المحيطات واجتيازها بقارب مهترئ خرق. وعلى ذلك ينبغي للإنسان الانتباه إلى مسألة الوجهة التي يريد الذهاب إليها، وإلى اختيار الواسطة التي يريد استخدامها.

إن رؤية اختلافات المناهج مثل انحراف أو فساد العقيدة، والنظر إلى التسليم للمرشد ضمن دائرة القرآن والسنة على أنه مثل تعلق المشركين بآبائهم وأجدادهم يُعد خطأً وسلوكاً مؤلماً جداً.

يمكن أن يقول أحدهم: "ما الداعي للواسطة، فأنا سوف أسبح وأجتاز بنفسي". ويمكن أن يحدثنا آخر عن ذكائه الفائق، وعن تعلمه للرياضيات من غير معلم. وقد يقول مريض: "يوجد فتق في ظهري، ولكني لا أذهب إلى الطبيب قط"، وهذا اختياره. ويمكن أن نُحترم كل واحد من هؤلاء، ووجهة نظره. ولكن الأمر العجيب والغريب هو اتهام الذي يريد اللجوء إلى الأسباب للاهتداء إلى طريق أسرع، والتعلم بشكل أسهل، والحصول على شفاء أسرع، بالشرك. الأمر العجيب هو نظر أحدهم إلى أخيه الذي فضل سلوك طريقه من خلال التعلم من مرشد كامل، على أنه متلبس بالكفر لعدم تمكنه من إدراك ماهية أصول أو أسلوب ما.

وبطبيعة الحال فإن قول أحدهم: "لا أجعل أحداً واسطة بيني وبين الله" يستند إلى ادعائه الإبراهيمية، أي طريقة سيدنا إبراهيم عليه السلام. فينبغي توجيه السؤال إلى هذا الشخص:

إذا التهب سنك وشعرت بالألم، هل تقع ساجداً وتدعو الله تعالى وتنتظر منه الشفاء، أم أنك تسارع إلى الطبيب للتخلص من الالتهاب والألم الذي ألَمَّ بك بأسرع ما يمكن؟ أليس الفران سبب لرغيف خبزك،

والبستاني سبب لفاكهتك، والخياط سبب لثيابك؟ ولطالما أن دخول أحدهم بينك وبين الله شرك، فلماذا تصرخ كل مساء: "ألم ينضج الطعام بعد يا امرأة؟" ما دام الأمر كما تقول انتظر، ولتنزل عليك المائدة التي نزلت على السيدة مريم. وطالما أن طلب النجدة من الآخرين شرك، فلماذا تسارع إلى الاتصال بمركز الإطفاء عندما يحدث حريق في منزلك؟ ما دام الأمر كما تدعي، فكن مثل سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقل: لا يقتربن أحد من النار، فمن أوقدها سيخمدها!.

إن كلام هذا الإنسان مثل طعم اللحم الذي لم ينضج جيداً. إنك من جهة تسمي اللجوء إلى الأسباب شركاً، ومن جهة أخرى تمتلئ حياتك في كل لحظة بأمثلة ومشاهد لا تحصى من الأخذ بالأسباب. هل يقع الشخص الذي يطلب العون والمساعدة من هذا وذاك حتى في أبسط احتياجاته، في الكفر عندما يطلب عوناً من واحد من أهل الله؟ فيجب عدم الخلط بين الواسطة وغايتها، والابتعاد عن سلوك التكبر والإنكار تجاه السبب بالقول أنه "مجرد واسطة" لا أكثر. لأن بعض الناس قد يقعون بسبب هذه النظرة القاصرة في مصيبة استبعاد حتى أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام بقولهم: "يكفيني القرآن".

لا يتحقق القرب إلى الله بالاعتراض على حكمه. فالقرآن الكريم يدفعنا إلى الارتباط مع سيدنا محمد عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم، ويدلنا على الطريق إلى ذلك، وذلك بقول الله تبارك وتعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١)

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ (النساء: ٨٠)

ليس من العقل ولا الإنصاف رفض منهج ما ونبذه لعدم التمكن من فهمه. فعدم قدرة المرء على فهم طبيعة دواءٍ ما، أو الخطأ في وصفه، أو عدم تحمل بنيته الجسدية له لا يُنقِص شيئاً من فعاليته وخاصيته العلاجية. فما أغرب وأعجب من إنكار كل ما هو خارج عن حدود علمك ومعرفتك لشيءٍ إلا اتباع الهوى والنفس، حيث إن المسلم أصبح بكل سهولة يدير ظهره لأخيه المسلم، ووصل إلى حالة يمكنه فيها من القول له بملء فمه ودون أن يشعر بأدنى حرج: "يا كافر!" مع أن اتهام الشخص للمسلم بالكفر يعود عليه إن كان الاتهام باطلاً، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

"لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق، ولا يرميه بالكفر، إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك". (البخاري: الأدب، ٤٤)

إننا نعرف الرابطة جيداً، إنها البريء الذي يضر به الغادي والبادي. الرابطة تعني التدرج على طريق إدراك محبة الله. إنها بذل الجهد والسعي لبلوغ مرحلة المراقبة، والوصول إلى مقام الإحسان. إنها الانشغال بالنفس بهدف تطهير كافة خلايا الجسد من كل ما سوى الله. إنها تدريب مؤقت على الطريق الذي يقود إلى طاعة الحق سبحانه وتعالى؛ إنها رسالة مشخصة مرسلة بدعاء الوصول إلى مرحلة الشعور بأن الله يشاهدنا في كل لحظة من لحظات حياتنا.

من الممكن ألا يكون بعضهم قد تذوق حلاوة المحبة وأحواله؛ ولكن عدم إحساسهم، أو عجزهم عن الفهم لا يخل بجمالية الرابطة بشكل من الأشكال. فدعونا لا ننتظر ذهاب الجميع بالسيارة، فليختر كل ما يناسب مشربه من حافلة، أو قطار، أو طائرة. ولكن العجب والغرابة تكمن في الأمر الآتي: وهو أن يقول الذي ركب عربة يجرها ثور: "انظروا إلى ذاك، إنه يذهب بالطائرة! إنه مشرك!!!".

وفي الواقع، ماذا يمكن أن نفعل لهذا الكلام الكبير لشخص لم يكن قد أحب حتى بقرة صفراء؟ إن ما نتمناه لمثل هؤلاء الناس أن يتجنبوا الخوض في الحديث بعلم وغير علم حول غرفة لم يدخلوها، وطعام لم يتذوقوا طعمه، ليتجنبوا الوقوع في الذنوب والخطايا. آمين.

التطهير الإبراهيمي والإسماعيلي في الكعبة

﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

أدهم جبهجي أوغلو

لقد ربط سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام الطهارة مع الإيمان إذ قال:

"الطهور شطر الإيمان" (أحمد بن حنبل: ٣٧، ٥٣٦)

أي نصفه، وهذه الطهارة التي عدَّها الحديث النبوي نصف الإيمان على نوعين:

الأولى: الطهارة من النجاسات المادية المرئية بالعين. والأخرى الطهارة من الحدث أي النجاسات غير المرئية بالعين. وقد أطلق محي الدين بن عربي على هذه الطهارات اسم الطهارة الآفاقية، والطهارة الأنفسية. فنحن إن أردنا أن نصلي نتوضأ، ثم نقف في مكان طاهر من الناحية المادية، ثم نتوجه بأجسامنا إلى مركز دنيوي مادي أي إلى الكعبة، ونؤدي صلاتنا على قدر طاقتنا راجين من الله القبول. وهذا الأمر الذي نقوم به ثابت بالآية القرآنية الكريمة:

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة: ١٤٤)

هناك انسجام تام في الطهارة في ثلاثية: الصلاة والإنسان والكعبة، من الناحية المادية والمعنوية...

ويبدو هذا الانسجام في الطهارة كما يلي:

١. الكعبة

قال الله تعالى لسيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما ورد في القرآن الكريم:

﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة: ١٢٥)

يشير مولانا سبحانه وتعالى بقوله في الآية الكريمة: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ إلى تطهير سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام للكعبة المشرفة.

فالله سبحانه وتعالى يأمر نبيه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بتطهير الكعبة، وكأنه يقول لنا في الوقت نفسه: يا عبادي طهروا كعبتي كما طهرها إبراهيم وإسماعيل من قبل.

إن سيدنا إبراهيم عليه السلام هو الأصل/ الأب، وأما ولده إسماعيل عليه السلام فهو الفرع/ الابن.

وتتضمن الطهارة الإسماعيلية التي ستتم في الكعبة كل نوع من أنواع النظافة والطهارة المادية وسائر

الخدمات الأخرى. بحيث تبدأ هذه الطهارة من التقاطنا لأي قمامة نراها على الأرض في الطواف، وعدم رمي أي فضلات هناك، ثم تختلف كيفية هذه النظافة وكميتها على حسب مستوى الناس؛ وهذا الأمر مرتبط بتربية النفس، أي "تزكية النفس".

وأما الطهارة الإبراهيمية فهي تطهير القلب بالطواف. هي تصفية متتالية للقلب على سبعة أشواط بحيث يرتقي في كل شوط من طبقة سماوية إلى أخرى؛ فهي عملية ل"تطهير القلب".

ويورد الشيخ محي الدين بن عربي في كتابه (الفتوحات المكية) توضيحات وشروحات ملفتة للغاية عن تطهير القلب. (محي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، بيروت ١٩٩٩، ج ٢، ص ٤٧٦ – ٤٧٧)

وهنا أود أن أنقل إليكم ذكرى من ذكريات الشيخ سامي أفندي قدس الله سره والتي تُعد تعبيراً تاماً عن العلاقة بين طهارته والكعبة:

يروي لنا العم المحترم تحسين بالكسيرلي– أطال الله في عمره– ذكرى له مع سامي أفندي في الطواف، فيقول:

"أعتقد أن الوقت كان نهاية الستينات من القرن الماضي. إذ ذهبت بصحبة شيخنا سامي أفندي إلى الحج، وكنت ملازماً له بشكل شبه دائم، وكنا نؤدي صلاتنا مقابل الميزاب الذهبي، ونقوم بواجباتنا سوياً ونطوف بالبيت.

لم تكن المنطقة المحاطة بالكعبة أي المطاف في تلك الأوقات مفروشة بالرخام الأبيض كما هو الحال عليه في أيامنا هذه. كان المكان مفروشاً بالرمل، ولم يكن تنظيف ذلك الرمل سهلاً كما هو تنظيف الرخام حالياً.

وكان يتجمع فوق تلك الرمال شيءٌ من القمامة التي يتم رميها بقصد أو بغير قصد. وكانت هذه القمامة تؤذي الذين يطؤون فوقها. هكذا كانت الحالة في تلك الآونة.

في إحدى المرات دخلنا مع إخواننا بصورة جماعية إلى الطواف، وجعلنا سامي أفندي قدس الله سره في وسطنا.

وبعد استلام الحجر الأسود بدأنا بالطواف. لقد كنا نطوف مع مجموعتنا بما فيهم سامي أفندي الذي كان في الوسط، كنا نطوف بسكينة ووقار وهدوء تام دون أن نؤذي أحداً أو نتأذى من أحد. وبعد أن أنهينا الشوط الأول جثا سامي أفندي على ركبتيه، وصار يمشي جاثياً، ويلتقط ما يصادفه أمامه من قمامة. ثم أمسك بطرف ثوبي بهدوء وسحبني إلى جانبه. فاقتربت منه فوراً، وجثوت على ركبتي بجانبه، وبدأت أمشي مثله. وصرت أفعل كما يفعل.

كانت على الأرض قصاصات من الورق والمناديل، وأشياء أخرى من القمامة. فكنا على تلك الحالة نسير سوية من جهة، ومن جهة أخرى نلتقط كل ما نصادفه في طريقنا من مخلفات وقمامة قد تؤذي الناس.

ففهمت من واقع الحال أن الأمر ليس طواف فقط وإنما في الوقت نفسه يجب المحافظة على النظافة والطهارة أيضاً.

وبعد مدة نهض سامي أفندي، وتابع الطواف. وأما أنا فقد نفذت المهمة التي كلفت بها طيلة مدة الطواف.

إن ما تفهمونه من هذا الكلام هو أن سامي أفندي قد علمني هذا الجانب من خدمة الكعبة بلسان حاله".

إن الله سبحانه وتعالى طلب من سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام تطهير الكعبة، وقد طهَّرا الكعبة.

وقد أدرك سامي أفندي بفراسته ودقة ملاحظته مغزى الآية الكريمة، فأخذ إسماعيله- أي العم تحسين- إلى جانبه لالتقاط القمامة والمخلفات على الأرض كي لا تؤذي الطائفين والعابدين لله تعالى.

إذاً؛ كان يجب القيام بتطهير ذي جانبين لبيت الله تعالى، وهو الجانب الإبراهيمي، والجانب الإسماعيلي؛ أي التطهير المادي، والتطهير المعنوي.

هناك طريق ممتد من الكعبة الظاهرة/المجازية إلى كعبة القلب الباطنة/الحقيقية، وهذا هو الهدف الأساسي.

وينبغي تعليم الطهارة من هذا المركز، فالقلب بيت الله تعالى. لذلك فإن كل شيء في ذلك المركز، وإذا طُهِّر ذلك المكان طُهِّر كل شيءٍ.

فهل هناك شيءٌ أهم من الالتفات إلى تطهير قلوبنا من خبائث النفس عندما نطوف حول كعبة قلوبنا، ونحن ننادي باسم الله جل جلاله؟

ما رأيكم؟

٢. الصلاة

تُعد الطهارة من النجاسة والحدث فرضاً من فرائض الصلاة. وهناك الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تبين الجانب المادي للطهارة وعلى رأسها أية:

﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ (الأعراف: ٣١)

وأما الطهارة المعنوية أي من الحدث فهي الوضوء الذي يستدل عليه من آية:

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ (المائدة: ٦)

وتظهر تفرعاته فقهياً بالكثير من الأحاديث النبوية الشريفة.

إن الطهارة الأولى من هاتين الطهارتين هي المادية، وأما الأخرى فهي المعنوية.

٣. الإنسان

للإنسان أيضاً نوعان من الطهارة مثل الوضوء:

فهناك الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التي تتحدث عن الطهارة المادية والمعنوية للإنسان وعلى رأسها آية:

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢)

وتحتوي هذه الآية المباركة على إشارة واضحة إلى وجود علاقة مباشرة بين محبة الله وبين الطهارة المادية والمعنوية.

إن كلمة "التوابين" الواردة في الآية الكريمة تشير إلى الطهارة المعنوية، وأما كلمة "المتطهرين" فإنها تشير إلى الطهارة المادية.

تُعد الطهارة من رجس الذنوب المعنوية والطهارة من النجاسة المادية عنصرين رئيسيين من عناصر تكوين الإنسان واللذان لا يمكن الاستغناء عنهما بحال من الأحوال.

وخلاصة القول أن كل نوع من أنواع الطهارة بشقيها المادي والمعنوي يسمو بالإنسان، ويرفعه إلى مستوى الكمال... والسلام.

جرح اللسان

عائشة آيتَن غورصوي

دعونا لا ننزلق إلى مواضع الغيبة ذات الرائحة النتنة، فنكون فيها بمثابة المدخن السلبي. أحياناً تنتشر هذه الرائحة فجأة في وسط بيوتاتنا، وأحياناً تفرض هذه الرائحة نفسها في وسائط النقل التي نركبها للسفر من مكان إلى آخر، وأحياناً أخرى تنبعث هذه الرائحة في الأماكن التي نعمل فيها ونلتقط رزقنا. لا مهرب منها، وكأن هذه الرائحة قد اخترقت كل زاوية من زوايا حياتنا.

إنهم يتناولون أفخر أنواع سجائر الغيبة، فيشعلونها، ويسحبونها إلى داخلهم بكل متعة وتلذذ. إنهم في تلك اللحظات يظنون بأن سيجارة الغيبة تدخل إلى نفوسهم الراحة والانشراح، ولكن لا يعلمون بأنهم يعملون على تدمير كل أعضائهم الداخلية. وكأنهم لا يكتفون بسوق أبدانهم إلى الهلاك حيث ينفخون بها إلى الخارج بكل قوة نفسهم. فيتعرض المدخنون السلبيون الذين يستنشقون تلك الرائحة بصمت للخطر عينه.

جاء في الحديث النبوي الشريف:

"من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان".

تُشبه الغيبة بالنار. فكيف أن النار تأكل الحطب، فإن نار النار الغيبة تأكلنا وتنهينا مثلها.

نعتقد بأننا عندما نبوح بكل ما ترغب أنفسنا بقوله بحالة الغضب سوف نشعر بالارتياح، وسوف نلحق الضرر والأذى بالآخر الذي غضبنا منه. بينما في الحقيقة فإننا بهذا الفعل نضع منجلاً بيد الشيطان،

فيحصد بها حسناتنا واحدة بعد الأخرى. وبعد ذلك يستلقي ويضحك مقهقهاً بكل فرح ومتعة. فهل من السهل اكتساب الحسنات؟

فأين نحن ممن قال بجانب النبي عليه الصلاة والسلام "إن فلاناً قصير"، فقال النبي عليه الصلاة والسلام مغضباً: "لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته". (رواه الترمذي)

وانظروا ماذا يقول ربنا سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ (الحجرات: ١١ – ١٢)

وعن أنس ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال:

"لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: يا جبريل! من هؤلاء؟ قال جبريل: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم".

ذات يوم أخذ رجل جالس مع أحد أصحابه يغتاب شخصاً له به معرفة قليلة. وفي تلك الليلة رأى الرجل حلماً غريباً، حيث بدت فوقه يد كبيرة وأخذت تؤشر نحوه. فاستيقظ الرجل فجأة من النوم وقد سيطرت عليه مشاعر تأنيب الضمير والشعور بالذنب.

وفي اليوم التالي ذهب الرجل إلى أحد الشيوخ وقص عليه كل ما جرى معه. وبدأ بطرح أسئلة على الشيخ:

هل الكلام على إنسان ما "الغيبة" ذنب؟ ومن كان الذي أشار إليّ بيده؟ هل كان ملكاً مكلفاً من الله تعالى؟ وكيف يمكنني الآن التكفير عن ذنبي؟

فعبر الرجل عن تأسفه وندمه، وتاب من ذنبه. ثم قال للشيخ متسائلاً: "لقد تبت، فهل يا ترى تخلصت من ذنب الغيبة؟ ولكي يعطيه الشيخ درساً تربوياً مفيداً قال له: "ليس بتلك السرعة التي تتصورها. فاذهب الآن إلى بيتك، فخذ وسادة إلى سطحه ومزقها هناك بالسكين ثم عد إلي. ففعل الرجل ما طلبه منه الشيخ ثم عاد إليه. فسأله الشيخ: هل مزقت الوسادة بالسكين؟ أجاب الرجل:

نعم، لقد مزقت الوسادة كما قلت لي.

فقال الشيخ:

وما ذا كانت النتيجة؟ فأجاب الرجل:

لقد تطاير الريش الذي بداخلها في كل اتجاه.

فقال له الشيخ:

"أريد منك الآن أن تعود إلى البيت وتجمع كل الريش الذي بعثرته الرياح."

فقال: ولكني لا أستطيع فعل ذلك. فأنا لا أعلم أين ذهب ذلك الريش، حيث أن الرياح قد نثرته في كل الاتجاهات.

قال الشيخ: هذه هي "الغيبة". فالريَش التي تذروها الرياح تتطاير من حولنا، وتتناثر في كل اتجاه. فما الذي ننظره بعد حتى نلتفت فنجمع هذه الريش؟

فماذا تقولون؛ هل نصغ السمع لنصيحة مولانا جلال الدين الرومي؟: "إن غيبة هذه الدنيا مثل غبار كثيف تغطي مرآة القلب. فكن عاقلاً، واجعل الصمت عادة لك لبعض الوقت."

(اللهم أبعدنا عن بلاء الغيبة، وأشغلنا يا رب بعيوب أنفسنا، ولا تجعلنا ممن ينشغلون بعيوب الآخرين. واحفظ آذاننا من رائحة الغيبة، وألسنتنا من مذاقها العفن) آمين..

آه أيها الإنسان!

صالح زكي مريج

هل يُعرف تاريخ للظلم؟ ومتى بدأ الظلم؟ ومتى سينتهي؟ فما كان ذنب هابيل مثلاً؟ وأية مشاعر دفعت قابيل إلى الظلم؟

هل تعلم أيها الإنسان بأنك اقترفت أعظم الجرائم ببدنك الصغير؟ تعرف حق المعرفة أنك لا تستطيع الخلود بالظلم. لقد حطمت أخاك وحطمت نفسك، لقد قضيت على الشرف والكرامة الإنسانية، وعلى تلك المشاعر الجميلة التي جاءت بها فطرتك السليمة. في حين أن الله خلقك في أحسن تقويم، وجعلك أفضل وأشرف المخلوقات. ولكنك نسيت؛ نسيت شرفك، وفضلك، نسيت القيم الكثيرة التي منحك إياها ربك ﷻ. نسيت وعدك؛ لقد نسيت إقرارك لربك الذي قلت فيه "أنت ربنا".

قال لك: لا تنخدع بإغواءات الشيطان، لا تنخدع برغبات نفسك، فالشيطان يلاحقك في كل آن. لقد جاءك من يمينك، ومن شمالك، ومن أمامك، ومن خلفك، فانخدعت وأضلك، فأصبحت من الظالمين.

أراد خالقك منك نشر السلام، والأمان، والرفاه، ولكنك عصيته واخترت اللجوء إلى القوة، والبطش، والاستبداد، والطغيان فما نلت إلا آهات المظلومين.

أيها الإنسان!

لقد بنيت تاريخك بالدموع، والآلام، والأحزان. فلماذا؟ هل بسبب جنوحك نحو امتلاك السلطة، والقوة، والعظمة والذي ليس في داخلك ما يردعه؟ من يعلم كم من آهات المظلومين سنسمعها لو انحينا إلى الأرض وأصغينا لها السمع. وكم من صرخات ترتفع من تحت التراب.!

أيها الإنسان!

لقد مضت قرون وقرون. ولكن فلا السنوات غيرت من خصالك السيئة، ولا أنت أدركت كم هي مزرية ومؤلمة، ومريرة الحالة التي أنت فيها.

جاء حين من الدهر صرت فيه فرعوناً، وحيناً صرت قارون، وحيناً صرت نمرود. لقد رفعت عرشك فوق دماء وأجساد المظلومين. ومرت فترة من الزمن أصبحت فيها أبا جهل، وصرت عتبة على صدر بلال. ارتفعت شخيصتك فوق ضعف وهزال العبيد. صرت دماً في كبد حمزة الشهيد.

لم تشبع من الظلم وأنت تضع أحشاء الناقة فوق ظهر فخر البشرية. لم تشبع وأنت تكوي بالحديد المحمّى على النار جسد خباب بن الأرت.

حملت أمانة ربك. ولكنك صرت ظلوماً جهولاً. أبديت الجرأة والجسارة على حمل الأمانة التي خشيت الجبال، والحجارة من حملها.

استهدفت الحسين في كربلاء، فأصدرت فرماناً قتله. ولم تأبه لكون دمه الذي سقى رمال الصحراء اللاهبة من صلب سيد السادات.

أيها الإنسان!

هل كان لك الحق أن تملأ هذه الدنيا بالآلام والأحزان؟ وأن تسلب الرغيف من يد المظلومين؟ هل كان لك الحق بأن تحطم مستقبل الأبرياء؟

إن عصر البشرية المخجل هو القرن الواحد والعشرين. القرن المزين بالأقنعة، القرن الذي يُزعم فيه بانتشار الديموقراطية، والعدالة، وحقوق الإنسان.

فالظالم ظالم، فمهما تعاقبت السنوات وتغيرت فلا يتغير إلا شكل الفراعنة.فها هي البوسنة، وكأنها الأمس. حيث أن مئات الآلاف من الأطفال البرآء يتناثرون على سفوح ومنحدرات البوسنة مثل أزهار الثلج. فالهمجي الذي يأكل أصنامه المصنوعة من التمور هو أيضاً إنسان، والذي يغلق عينيه وينكر نفسه أيضاً إنسان.

أيها الإنسان!

أما زلت لا تبصر الدموع المنهمرة من عيني فلسطين! وأحوال الأطفال الذين يكبرون وهم يلعبون ألعاب الحرب وسط زخات الرصاص منذ سنوات طويلة.

إلى أين ستصل أيها الإنسان بظلم الأطفال حديثي الولادة الذين يخترق الرصاص صدورهم، ورؤوسهم، وعيونهم؟ ما الذي لم تستطع تقاسمه منذ عهد آدم؟

صرت في فلسطين المسروقة لطخة سوداء على وجه الإنسانية.

والآن أنت في سورية. ففي سورية تموت وتُنعى الإنسانية. يموت البشر، يُقتل الأطفال، والأجنة في بطون أمهاتها، ويُقتل الناس العزل بدم بارد، وبأبشع الطرق.

يُسمع صدى أنين الإنسانية من جميع أنحاء العالم.

أليس لهذه الليلة السوداء المظلمة فجر يبزغ؟ أليس هناك من عصاً يُرمى بين عجلات طاحونة الظلم هذه؟ أليس هناك ما يخفف آلام أبدان الأطفال التي تُمزق كل يوم؟ أليس هناك من يكون صوت الصرخات الصامتة؟ أليس هناك، أليس هناك من أحد؟ فإلى أين هذا الظلم، إلى أين؟

أيها الإنسان!

أطير من الفرح

سأطير فرحاً يا رسول الله،
لو تكرمت عليّ بزيارة في منامي
سأطير فرحاً يا رسول الله،
لو ألقيت نظرة إلى دنيا قلبي
حنيني مستمر منذ سنوات، فأنا أشتاق إليك
في كل لحظة وآن
في عيني دموع، وفي قلبي هجران
وعندما أرى وجهك المبارك
سأطير فرحاً يا رسول الله
لو تشرفني في المنام ذات ليلة
لو أنظر إلى عينيك في هذا اللقاء مرة
لو أقبل يديك الورديتين في الإياب
سأطير فرحاً يا رسول الله
أنت إحسان، أنت نور من الله للعالم
ابتسامة منك تكفي لهذه الروح الملتاعة
لو تتكرم علي فتأتني مرة لنقف جنباً إلى جنب
سأطير فرحاً يا رسول الله
رؤيتك عيد حقيقي
وإن تكن هذه المكرمة في المنام
لو أنك تنزل إلي، وتلقي عليّ السلام
سأطير فرحاً يا رسول الله
لو أنك تكويني في نار عشقك
لو أنك تقيدني في حجرة قلبك
لو أنك ترسلني إلى مقام الوصل
سأطير فرحاً يا رسول الله

عثمان آلتاش

الدكتور: سليمان درِن

الرؤيا الإلهام الكشف

يعطي الصوفيون مكانة خاصة للإلهام والكشف مصدراً للمعلومات، وبهذا يفترقون عن أتباع فروع العلم الأخرى.

غير أن هذه المفاهيم استُغِلَّت بشكل كبير من المتصوفة أحياناً، ومن غيرهم أحياناً أخرى. يقدِّم لنا الإمام الرباني السرهندي الذي كان صوفياً مجتهداً أعقدَ مسائل التصوف وأصعبها بطريقة سهلة وجزلة، ويذكر معلومات تنير آفاقنا في هذه المسائل من جهة، ومن جهة أخرى يغلق الأبواب أمام استغلالها. ويرى أن الأصل في الأحكام الشرعية مثل الفرض، والحلال، والحرام، والكفر، والإيمان إنما هو كتاب الله تعالى وسنة رسوله.

ولهذا لا تُقبَل أي مسألة دينية على غير وجهها الشرعي بالاستناد إلى الإلهام والرؤى سواء قام بهذا الأمر المتصوفة، أو غيرهم ممن لم تعجبه المسألة:

"إن المصدر الذي يؤخذ بعين الاعتبار في مسألة إثبات الأحكام الشرعية هو الكتاب والسنة. ويُعد من مصادر إثبات الأحكام أيضاً قياس المجتهدين وإجماع علماء الأمة. ولا يمكن أن يكون أي مصدر آخر ما عدا هذه المصادر الأربعة وسيلة لإثبات حكم قطعي. ولا يمكن أن يكون الإلهام دليلاً في تحريم شيءٍ أو تحليله، والأمر ذاته بالنسبة لكشوف أرباب الباطن، حيث لا يمكن أن تكون هذه الكشوف مصدراً في جعل أمر ما فرضاً أو سنة". (مكتوبات: ٢، ٥٥، مكتوب)

ويرى الإمام أن المتصوفين من أصحاب الولاية الخالصة والمؤمنين العاديين سواءٌ في اتباع فتاوى الفقهاء المجتهدين، وأن كشوفاتهم وإلهاماتهم لا تمنحهم مرتبة أعلى تجاه الآخرين في المسائل الفقهية ولا تعفيهم من مسؤولية التقليد في هذه المسائل:

"لا تختلف حال أحمد، ومحمد، وبكر، وخالد من عوام المؤمنين عن أحوال ذي النون المصري، وأبي يزيد البسطامي، وجنيد البغدادي، وذلك في مسألة تقليد المجتهدين. نعم هناك أفضلية لهؤلاء الرجال الكبار في الأمور الأخرى، فهؤلاء أهل الكشف والمشاهدة، ومن أهل الظهور والتجليات. ولأنهم أحاطوا أنفسهم بمحبة الحبيب الحقيقي فقد انقطعوا عن كل ما سواه. لقد تخلصوا من عبودية رؤية الأغيار."

ويرى الإمام بأن الإلهام والمعلومات الكشفية والمعرفة لا تتحصل إلا بتطبيق الشريعة بشكل تام. ويشبِّه الإمام الشريعة بجذع الشجرة، فإذا ما أصابها فساد ونخر فإن ذلك يسري إلى الثمار أيضاً، حيث تفسد هي الأخرى:

"في الواقع إن هذه المعارف هي ثمار هذه الأحكام (الشرعية). والغاية من الشجرة هي الحصول على الثمر، فإذا كانت الشجرة موجودة فيصح انتظار الثمر أيضاً. ولكن إن أصاب جذوع الشجر مرض ما فيعني أنه ليس هناك ثمار أيضاً. وإذا قُطعت الشجرة فإن انتظار أحدهم للثمار من تلك الشجرة يُعد حماقة ما بعدها حماقة. فكلما ازدادت العناية بالشجرة وحسنت، فإنها تزداد تحسناً بقدر ذلك، وتنتج الكثير من الثمار. أجل، فمها كان الثمر مقصوداً فينبغي عدم النسيان بأنه فرع للشجرة".

وبعبارة أخرى إذا لم يكن جذع الشريعة صحيحاً وسليماً، فإن الثمر الذي يتم الحصول عليه يكون فاسداً. لأن غذاء الثمر لا يصل إليه إلا عن طريق الجذع. وعلى ذلك فلا يمكن الوثوق بمن لم يطبقوا القواعد والمبادئ الشرعية للدين والذين يبدون في الظاهر بأنهم يطبقون ذلك، مهما جاؤوا برؤى وإلهامات.

وبعض الناس في عصرنا هذا يعملون بشكل مخطط ومدروس على إبعاد التصوف عن القواعد الشرعية، ويحاولون جعله ديناً مختلفاً تحت اسم المعرفة. يعد كلام الإمام الآتي تحذيراً مهماً من أمثال هؤلاء الناس:

"وبناء عليه يجب التمييز بين المرتبطين بحق بالشريعة والمتملقين. فالشخص المرتبط بالشريعة يُعد صاحب معرفة، فكلما زاد ارتباطه زادت المعرفة أيضاً. وأما الذين يبدون ظاهرياً الارتباط بالشريعة فليس لهم نصيب من المعرفة. وإن بدت مهارات معينة أو خوارق ظاهرة لديهم مع الأفكار الفاسدة التي يحملونها فإنها لا تعد معرفة حقيقية، وإنما استدراجاً،

وتبدو هذه الأشياء لدى البراهمة الهندية ومن يتبعون اليوغا. ويُعدُّ كل شيءٍ يُعرَف على أنه حقيقة لا تقبل بها الشريعة وتُقرُّها زندقةً وكفراً."

ولهذا لا يمكن عد أي رأي أو فكرة مخالفة للعقيدة والفقه الإسلامي أمراً طبيعياً سواء جيء بها بالرؤيا، أو بالإلهام. وإضافة إلى ذلك يقول الإمام في إجابته عن بعض المتسائلين عن بلوغ الدين إلى الكمال بالكتاب والسنة، وعن إمكانية الاعتماد على الإلهام لسد نقص ما قد يظهر في الدين:

"في الواقع الإلهام يُظهِر جملة من الفضائل الخفية الموجودة في الدين، ولا يضيف أي فضائل جديدة غير موجودة في الدين. فكما أن الاجتهاد يظهر الأحكام، فإن الإلهام أيضاً يظهر الأسرار والدقائق التي يعجز الكثير من الناس عن فهمها."

ويوصي الإمام بالاحتياط والحذر في تناول الرؤى، فحتى لو كانت الرؤى قد تشير إلى المراتب الإيجابية أو العالية التي وصلها الإنسان، فإنها في غالب الأحيان لا تتحقق وتتطابق مع أرض الواقع وبالتالي فإن الرؤى تعرِّض صاحبها للخسران.

فعندما يتم تقييم إنسان ما يُنظَر إلى حاله في هذه الدنيا وليس إلى رؤاه.

وما الوقائع التي تُشاهَد لدى الطالبين في الطريقة إلا أمثلة واضحة لنا.

يبين الإمام هذه المسألة التي يمكن أن يخطئ كثير منا في فهمها، فيقول:

"إن الرؤى والأحلام التي تُشاهد لدى الطالبين في هذه الطريقة لا تُؤخَذ بعين الاعتبار أيضاً. حيث أنهم يرون أنفسهم في مقامات عالية، ويظنون بأنهم قد وصلوا إلى فضائل أرباب الولاية. إذا ظهرت هذه الاحتمالات في عالم الشهادة فإنها تصبح سعادة وحسن حظ كبير. وأما إذا حصل العكس بأن بقي ما تم رؤيته في الرؤيا في عالم الأحلام فإنه يُعد من دون فائدة، وفوق ذلك ينبغي النظر إليه على أنه مصيبة. وذلك لأن كل نسَّاج يرى نفسه سلطاناً في رؤياه، إلا أن الأمر لا يعود عليه إلا بالندامة والحسرة. وبناء عليه ليس هناك من ضرورة لإيلاء الاعتبار للأحلام. فالغنيمة الأصلية هي ما يظهر في عالم الشهادة." (مكتوبات: ٢، ٥٨، مكتوب)

في الواقع الإلهام يُظهِر جملة من الفضائل الخفية الموجودة في الدين، ولا يضيف أي فضائل جديدة غير موجودة في الدين. فكما أن الاجتهاد يظهر الأحكام، فإن الإلهام أيضاً يظهر الأسرار والدقائق التي يعجز الكثير من الناس عن فهمها.

فلا يمكن للأحلام والرؤى التي لا أصل لها في الدين أن تُعد وفقاً لرأي الإمام دليلاً في مسألة ما، وإن كانت في الدين فإنها تتيح فهم الدقائق المعنوية التي يصعب فهمها عند النظر إليها للوهلة الأولى وتزيد تقوى الشخص، وتساعد المؤمنين في مسألة تنفيذ الأمر الديني الواضح بشكل أفضل. فكما أن اجتهاد المجتهد يُعد داخل دائرة الدين، فإن الإلهامات أيضاً تُعد داخل دائرة فضائل الدين.

نسأل الله سبحانه وتعالى الوقاية من الزلل في طريق الروحانيات، لأن الخطأ في المسائل الفقهية قد يقود الإنسان إلى الفسق، أما في مسائل التصوف والإيمان فإنه يقود الإنسان أحياناً إلى الزندقة.

هذه صورة من تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع غير المسلمين

عن أبي هريرة رضي الله عنه

قال: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة. فدعوتها يوما فأسمعتني في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أكره.

فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي.

قلت:

يا رسول الله ! إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي. فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره. فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(اللهم ! اهد أم أبي هريرة)

فخرجت مستبشرا بدعوة نبي الله صلى الله عليه وسلم.

فلما جئت فصرت إلى الباب. فإذا هو مجاف. فسمعت أمي خشف قدمي.

فقالت: مكانك ! يا أبا هريرة !

وسمعت خضخضة الماء.

قال: فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها. ففتحت الباب. ثم قالت:

يا أبا هريرة !

أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

قال فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيته وأنا أبكي من الفرح

قال قلت:

يا رسول الله ! أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة.

فحمد الله وأثنى عليه وقال خيراً.

قال قلت: يا رسول الله ! ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عبادة المؤمنين، ويحببهم إلينا. قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(اللهم ! حبب عبيدك هذا - يعني أبا هريرة - وأمه إلى عبادك المؤمنين. وحبب إليهم المؤمنين)

فما خلق مؤمن يسمع بي، ولا يراني، إلا أحبني) رواه مسلم.

طريق رفيع طويل

مراد آك كون

الحياة هي حسب مقولة العاشق ويسل Veysel "طريق رفيع وطويل".

طريق "رفيع وطويل، وذو اتجاه واحد". طريق يسير فيه الجميع نحن الأمام، طريق لا عودة فيه.

طريق طويل ورفيع ولكن خط حياة كل إنسان ينتهي ويختفي في أماكن ونقاط مختلفة منه. فخطوط البعض طويلة للغاية، وخطوط الآخر قصيرة جداً.

لو أننا كنا نعي وندرك بأن هذه هي حال الحياة، فمن المؤكد أن أموراً كثيرة كانت قد تغيرت. فلطالما أدركنا أن طريقنا لن يتغير وسوف ينتهي في نهاية المطاف لكنا في أغلب الظن سنسير ببطء قدر الإمكان. ولطالما علمنا بأنه لنا الحق بالسير على هذه الطريق لمرة واحدة لكنا في الغالب قلنا ما الداعي للعجلة، وحاولنا قدر المستطاع السير بتأنٍ والتأمل بالمناظر والمشاهد الجميلة المترامية على طرفي هذا الطريق.

ولكن مع الأسف؛ لا يود أحد منا التصديق بالنهاية المحتومة لطريقنا الذي نسير فيه. وفوق ذلك فإننا نسارع الخطى بكل ما أوتينا من طاقة متجهين مباشرة نحو خط النهاية. وكأننا نريد البرهنة على أن الطريق لن ينتهي أبداً.

كلنا في حالة صخب وسعي واحدة. مستعجلون ومتلهفون للوصول إلى أماكن ما، ومن دون أن نعلم بأن كل مكان نبلغ إليه سوف يوصلنا إلى النهاية.

نحطم كل شيءٍ ونريقه، نشرد عن الطريق، نطمع بطريق الآخرين ونمد بأعيننا إلى ما بأيديهم، ونسلب من إخوتنا حقهم بالحياة.

نعشق تجاوز بعضنا البعض، ندخل في سباق محموم ولكن دون أن يخطر ببالنا قول الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام: "تسابقوا في الخير".

لقد جعل "العالم الحديث وأنظمته" كل واحد منا وكأنه "حصان سباق". لقد زرع فينا هذا العالم المعاصر وأنظمته بذور "الطمع والجشع". فمدت غراس الحسد بأغصانها في قلوبنا، وبسبب التنافس المحموم والحرص الشديد على تجاوز المحيطين بنا والتفوق عليهم نحرق أنفسنا، والذين هم من حولنا.

وبسبب عشقنا للتفوق في هذا السباق والوصول إلى المركز الأول طرحنا أرضاً كل ما يثقل كاهلنا. وقبل كل شيءٍ رمينا عقلنا الذي يصرخ بنا قائلاً: توقف للحظة أيها الإنسان وفكر لمَ كل هذا الإسراع بالسير نحو النهاية؟ إن الحياة التي هدمتها وقضيت عليها هي حياة إنسان، أتظن أنك لن تُسأل عنها؟ فلم نعد نفكر، وأرحنا أنفسنا من وطأته.

ثم رمينا جانباً بضميرنا الذي يملأ مكان عقلنا الذي نزعناه من رؤوسنا، والذي لا يفارقنا في ساعات الليل القليلة التي جعلناها بمثابة استراحة قصيرة من السباق. فأصبحت عقولنا وضمائرنا أضاحي وقرابين على مذبح سباق أنهكنا أنفسنا فيه. صارت الفضائل والمحاسن التي صنعتنا في حفر عميقة...

فنحن بأقصى سرعتنا في هذا السباق، فلم يعد هناك شيءٌ يتقد في داخلنا الذي حرقناه بعشق التقدم في هذا السباق ونيل المركز الأول. ولم تعد تؤلمنا الوخزات اللاذعة لضميرنا الذي غاب عنا. ولم يعد عقلنا الذي اختفى في حفر ظلمات يصرخ بنا للمظالم التي نرتكبها.

أحياناً تتعلق بقايا عقولنا الباقية بربنا، ولكن سرعان ما يسوقوننا إلى سباق جديد. يقدمون سباقات جديدة لعقولنا من دون أن يرد ربنا إلى أذهاننا.

بالكاد بقي بين أيدينا إيماننا الطاهر والجميل مثل يوسف. فهل سوف نرمي بإيماننا الذي هو يوسفنا في الجب في سبيل أن نكون محبوبين من قبل هذه الأنظمة التي ظنناها يعقوباً، أم أننا سنقول مثل ما قال إخوة يوسف:

﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ (يوسف: ١٧)

في سبيل أن نكون الأفضل...

وفي سبيل أن نكون محبوبين... وفي سبيل الحصول على المركز الأول...

مراتب الهمم:

عن أبي كبشة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثا فاحفظوه قال: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزا، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر أو كلمة نحوها، وأحدثكم حديثا فاحفظوه قال: إنما الدنيا لأربعة نفر، عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما، فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقا، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول: لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء"

إمكانية إدراك الحياة

م. أمين كاراباجاك

يتحدثون عن الحياة والموت
أما أنا فعيني ترمق الموت
للحياة نواقص
الحياة الحقيقية في التي لا تنتهي. (نجيب فاضل)

إن الإنسان كائن غريب، إذ إنه ليس من المعروف ما الذي سيقوم به، وأين، ومتى سيفعله. فتنظر إلى أحدهم فتجده أنضج بكثير مما يبدو، وتنظر إلى آخر فتجده أصغر من الطفل الصغير. وهذا الأمر على أي حال يُظهِر بأن ابن آدم كالمعادلة مجهولة.

فالإنسان في صغره يود لو أنه يكبر قليلاً ويتقدم بالعمر. فعندما يستيقظ في كل صباح يسأل من حوله قائلاً: "لقد كبرت قليلاً، أليس كذلك؟" وينتظر منهم بحماسة شديدة تأكيداً على قوله.

ويتوق للذهاب إلى المدرسة، ثم إلى الجامعة، وللدخول إلى الحياة العملية، والحياة الزوجية ثم ينشغل بالعيال والأولاد. وفجأة ينظر وإذا به قد تجاوز الأربعين عاماً من عمره، فيدرك مدى استعجاله كي يشب ويكبر، ويبدأ بالحنين إلى طفولته.

يكون شوق وحنينه للطفولة كبيراً وشديداً لدرجة أنه يبدأ بالقول: "آه لو أعود طفلاً!"، ويستمر بحنينه وشوقه من خلال لجوئه للجمل التي تبدأ "ليتني أكون مكانك..." والتي يوجهها للأطفال الذين يراهم في طريقه.

وبينما هو يتأرجح بين الحنين والندم لا يلاحظ العمر والزمن الذي هو فيهما. إنه يفوت الزمن الذي يعيشه بسبب الحنين المبالغ فيه. ثم يبدأ مرة أخرى بالقول: "آه أيها الشباب الراحل".

تنظرون إلى المشافي فإذا بها مكتظة بالمرضى. وإذا سألت أحدهم: كيف حالك؟ يقول: "إنني مريض". وبالفعل هو كذلك. فالناس في مرحلة الشباب يفنون صحتهم من أجل كسب المال، ثم ينفقون هذا المال الذي كسبوه في مرحلة الشباب لاستعادة الصحة التي فقدوها في مرحلة الشيخوخة. إننا نطلع بشكل شبه يومي تقريباً من شاشات التلفاز أو من الصحف اليومية على خبر وفاة أحد من الناس، أو إصابته في حادثة ما، حتى إننا ندفن بأيدينا آباءنا وأمهاتنا وكذلك أصحابنا، وكأننا نعتقد أو نقول لأنفسنا بأن الموت قد خُلق من أجل غيرنا وليس من أجلنا. إننا لا نبدأ بالتفكير بالموت إلا عندما يتقدم بنا قطار العمر كثيراً وتطرق الشيخوخة أبوابنا. فعندما نشيخ ويفوتنا قطار العمر نصحو من غفوتنا ونقول كم مضى سريعاً هذا الذي يُقال له

العمر، بينما كنا في السابق نظن بأننا أبعد ما نكون عن الموت، أو أننا لن نموت أبداً. وننظر إلى العمر الذي صار خلفنا وكأننا لم نعشه.

يولي عمرنا مدبراً دون أن نعرف حتى متى وكيف سنحصل على السعادة. ونمضي دون أن نفهم الحياة. إننا نمضي عمرنا ونحن ننتظر كل لحظة أن تدق السعادة أبوابنا، أو نستهلكه بالبحث عن السعادة داخل أشياء مختلفة.

عندما نكون أطفالاً فإننا ننتظر أن نُسَرَّ في مرحلة الشباب، وإنهاء المدرسة. وأما في شبابنا فإننا نقول سوف نحقق السعادة بالزواج، وإنجاب الأولاد، وعند إيفاء الديون المتراكمة علينا، وتغيير سيارتنا.

وعندما يمر العمر أكثر، فإننا ننتظر السعادة بتحقق أمور معينة مثل إنهاء أبنائنا لدراستهم الجامعية والبدء باستلام وظائفهم، وزواجهم، وحصولنا على التقاعد.

إننا نمعن ونبالغ في استهلاك وقتنا من أجل التحضير والاستعداد للحياة لدرجة أننا نصحو فجأة وإذ بنا عند نهاية الحياة وكأننا لم نعشها.

سألوا الحكيم الشهير أفلاطون عن حالة الإنسان الذي يتصرف دائماً بأقواله وأفعاله مثل معادلة مجهولة.

فقالوا: ما أكثر أحوال الإنسان المثيرة للاستغراب والدهشة؟ فأجاب أفلاطون على هذا السؤال بقوله:

١. إن الإنسان يضجر ويتململ من الطفولة، ويستعجل التقدم في العمر، ثم يحن إلى طفولته.

٢. ينفق صحته في سبيل كسب المال، ثم ينفق ذلك المال في سبيل استعادة صحته التي فرط بها.

٣. يعيش وكأنه لن يموت أبداً، ثم يموت وكأنه لم يعش.

٤. يصرف جل وقته بالاستعداد للحياة، ثم لا يجد الوقت ليعيشها.

٥. يمعن التفكير بالغد، فيضيع اليوم الذي بين يديه. بينما لا تُعاش الحياة لا في الماضي ولا في المستقبل، وإنما تعاش في الزمن الحاضر.

إن الإنسان في وقتنا الحاضر ما يزال يتصرف مثل معادلة مجهولة. ما يزال ينظر إلى الإنسان بدلاً من استغلال الفرص التي في يديه.

إنه دائم التأرجح بين الماضي والمستقبل. فهو إما ينظر إلى الوراء أو إلى الآفاق البعيدة، ولا يريد النظر أمامه كثيراً. ولو أنه نظر أمامه لعرف نفسه ولاستغل وقت العمر الموجود في يده من أجل عيش اللحظة.

وباختصار فإنه سوف يدرك الزمن الحاضر، ويعيش حياة آنية لحظية. إلا أنه لا ينظر أو لا يستطيع النظر.

الحياة بالنسبة للإنسان مثل الماء الجاري الذي يتدفق دون توقف.

ولقد دلنا النبي ﷺ على الطريق الصحيح الذي يمكِّن الإنسان من إدراك الزمن، والفرص، والنعم المتاحة بين يديه، ثم استغلالها والاستفادة منها. فيقول النبي ﷺ:

"نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ". (رياض الصالحين، ٩٨)

ويقول عليه الصلاة والسلام:

"اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك". (الترمذي: الزهد، ٢٥)

وصفوة القول أنه حتى نتمكن من فهم معنى الحياة لا بد أن ندرك الوقت والنعم التي بين أيدينا. وينبغي ألا ننسى أبداً بأن الحياة لم تُخلق لنقضيها بالتذمر والشكوى، وإنما خُلقت لنعيشها، وندين فيها بالعبودية لله تعالى.

شُكْرُ المنعِم

إبراهيم منصور الحسين

نِعَمُ اللهِ لا تُحْصَى:

أنعمَ اللهُ على عباده نعماً لا يُحْصيها العَدُّ، ولا يُدركُها الحصرُ، (وإنْ تَعُدُّوا نِعمةَ اللهِ لا تُحْصُوها)، خلقَ الإنسانَ منَ العدم، ووهبَ لهُ الصِّحةَ والعافيةَ، ومنحَهُ العقلَ والإدراكَ، وهداه النَّجْدين، وأطعمَه من جوعٍ، وآمنَه من خوفٍ، يغدو في نِعَم ويروح في أخرَ، وكلٌّ واحدةٍ منها ليس لها في الدنيا ثمَنٌ.

وقدْ رضيَ اللهُ منَ الإنسانِ أنْ يقابلَ هذه النِّعَمَ بالشكرِ، وعَلِمَ أنَّ الإنسانَ عاجزٌ عن حقيقةِ الشكرِ، فرضيَ أنْ يأكلَ الأَكْلَة فيحمدَه عليها، أوْ يشربَ الشربَةَ فيحمدَه عليها. وقد رفعَ اللهُ تعالى منزلةَ الذِّكرِ، ثمَّ قرنَ به الشكرَ، فقال تعالى: (وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ)، ثمَّ قالَ تعالى: (فاذْكُرُوني أَذْكُرْكُمْ واشْكُرُوا لِيْ ولا تكفرون).

وجعلَ اللهُ الشكرَ أماناً من العذابِ فقالَ تعالى: (ما يَفعلُ اللهُ بعذابِكمْ إنْ شَكَرتُمْ وآمَنْتُمْ).

الشكرُ اعترافٌ بالنِّعَم:

وما الشكرُ إلا اعترافٌ بالعجزِ عن الشُّكرِ، وتعبيرٌ عن قصورِ الإنسانِ وصغرِه أمامَ عظمةِ المُنعِم، وما مَثَلُ ذلك إلا كَمَثَلِ الهُدْهُدةِ التي أرادَتْ أنْ تشكرَ سليمانَ عليه السلام.

زعموا أنَّ هدهدةً جاءتْ إلى سليمانَ عليه السلام فقدَّمَتْ له جرادةً كانتْ تَحملُها في فمِها، ثمَّ اعتذرَتْ عن ضآلة هبتِها، فقالتْ: إنَّ هذه الهبَةَ على قَدْري، وليستْ على قَدْرِك العظيم، فإنَّ الدنيا كلَّها لا تفي بقَدْرِكَ.

جاءَتْ سليمانَ يومَ العَرْضِ هُدْهُدةٌ
تُهدي إليهِ جَراداً كانَ في فيها
وأنشـــأَتْ بلســانِ الحــالِ قائلةً
إنَّ الهدايا على مِقدارِ مُهديها
لو كان يُهدى إلى الإنســان قيمتُه
لكان قيمتَك الدنيا ومـا فيــها

وَيروى أَنَّ داودَ عليه السلام قال: يا ربّ كيف أشكرُك؟ وشكري لك نعمةٌ أخرى توجبُ عليَّ الشكرَ لك، فأوحى الله إليه: إذا عرفتَ هذا فقدْ شكرْتَني.

أرأيتَ لو أهدى لك أحدُ الملوكِ مَركباً ثم أهدى إليك مَركباً آخر، فهل يكونُ المركبُ الآخرُ شكراً للأول أم يحتاجُ إلى شكرٍ مثل ما الأولُ يحتاجُ إلى شكرٍ.

مع أنَّ المولى ـ جلَّ شأنُهُ ـ لا ينفعُه شكرُ الشاكرين، ولا يضرُّهُ كفرُ الجاحدين، بلْ هو الغنيُّ عن العالمين.

الشكرُ مفتاحُ الزيادة:

وقدْ وعدَ اللهُ من يشكرُهُ بمزيدِ الإنعام والإفضال فقال ـ تعالى ذِكْرُهُ ـ: (لئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيْدَنَكُمْ)، ولم يَستثنِ ولمْ يَبْنِ وعْدَهُ على المشيئةِ بينما استثنى في خمسةِ أشياءَ: في الإغناء، والإجابة، والرزق، والمغفرة، والتوبة، فقالَ ـ تعالى ـ: (فسوفَ يُغنيكُمُ اللهُ منْ فَضْله إنْ شاءَ)، وقال ـ تعالى ـ: (ويَكشفُ ما تَدعونَ إليه إنْ شاءَ)، وقالَ ـ تعالى ـ: (يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)، وقالَ: (وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلكَ لِمَنْ يَشاءُ)، وقالَ: (وَيُتُوبُ اللهُ على مَنْ يَشاءُ)، كلُّ ذلك معلقٌ على المشيئةِ إلا الإفضالَ على الشاكرين ـ وقليلٌ ما هم ـ فوَعْدُهُ لَهُمْ منْجَزٌ، وَمَزيدُه لهم محققٌ.

معنى الشكر:

والشكرُ: هو الثناءُ بالسانِ على مُولِي النِّعَمِ ودافعِ النقمِ.

كما هو استعمال النِّعَمِ فيما خُلِقَتْ لَهُ.

وقال الجنيدُ ـ رحمه الله ـ: الشكرُ أنْ لا ترى نفسَكَ أَهْلاً للنعمةِ.

وقالَ الشبليُّ ـ رحمَه اللهُ ـ: الشكرُ رؤيةُ المنعمِ لا رؤيةُ النعمةِ.

وقال الخَوَّاصُ ـ رحمه الله ـ: شكرُ العامةِ على المَطعمِ والمَشربِ والمَلبسِ، وشكرُ الخاصةِ على واردات القلوبِ.

وهذه رتبةٌ لا يدركها من كان يسعى لترفيه نفسِه، والانغماس في الملذات والطيبات من ذوي القلوبِ المريضةِ والنفوسِ السقيمةِ وإنما يدركُها من انصرفَ هِمُّه إلى مَرضاةِ الله، وانشغلَ به عما سواهُ، من ذوي القلوب التي تَنْبِضُ بالحياة، وتَشِعُّ بالأنوارِ، وهذه التعاريفُ ترجعُ إلى أمورٍ ثلاثةٍ:

ـ معرفةُ المنعمِ الذي اتصفَ بصفاتِ الكمالِ والجَمالِ، والإنعامِ والإفضالِ.

ـ ومعرفةُ النعمةِ حيث يشعرُ بعظمتِها لأنها من المُنعم، ولأنَّها جاءتْ من دون استحقاقٍ وبلا عوضٍ.

ـ وإدراكُ الإنسانِ عجزَهُ وضعفَهُ، وأنَّه لا يملك لنفسه جَلْبَ نَفْعٍ، ولا دَفْعَ ضُرٍّ.

ومن هنا نظرَ كلُّ واحدٍ من أهلِ العلم إلى حقيقةِ الشكرِ من جهةٍ واحدةٍ، وأغفلَ غيرَها، وكلُّ ذلك صوابٌ، ولكلِّ مقامٌ معلومٌ، فالشكر ثناءٌ باللسان على مَن أولى الإحسانَ، وتعظيمُ المنعم بالجنانِ، وصرفُ النعمِ فيما خُلقَتْ لأجلِه وهو من عَملِ الأركانِ.

سيد الشاكرين:

وقد عَبَّرَ النبيُّ ﷺ عن شكر الله تعالى بكلِّ ذلك فروى مُسلمٌ عن عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ رِجْلَاهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَصْنَعُ هَذَا، وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا».

ومن عجب أن الله هو الذي مَنَّ على عباده بالنعم، ثمَّ وفَّقَ مَنْ شاء إلى الشكرِ ثمَّ أثابهم عليه.

وقدْ قرأ حبيبُ بنُ أبي حبيب هذه الآية {إنا وَجَدْنَاه صُابراً نعم العبدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} فقال واعجباه أعطى وأثنى.

فالسعيدُ مَن هده الله الى الشكرِ وقبلَه منه، فله تعالى المِنَّةُ في الأولى والأُخرى.

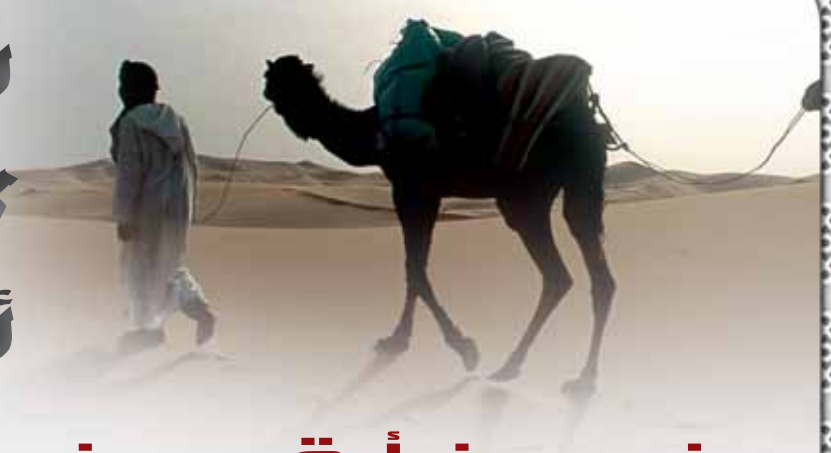

الذي لا يسكت أمام الظالم

زيد بن أرقم رضي الله عنه

مصطفى أريش

زيد بن أرقم رضي الله عنه:

- هو من الأبطال الصغار الذين جاؤوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام يوم أحد ليأذن لهم بالانضمام إلى جيش المسلمين والاشتراك في المعركة!
- هو الصحابي الصغير الذي سلَّمَ نفسه لله ولرسوله وهو في سن مبكرة من حياته!
- هو جندي من جنود العلم الذي يعلم بأن السكوت عن الظلم من الشيطان!
- هو جندي من جنود الإيمان الذي ثبت فضله بالوحي، وصار سبباً لنزول سورة المنافقين!
- وهو الصحابي الذي صدقه الله تعالى عندما حلف المنافق كذباً وأنكر ما قاله لزيد، فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا﴾.

ينتسب زيد بن أرقم رضي الله عنه إلى قبيلة الخزرج، ونال شرف دخول الإسلام في عمر صغير.

ولد في عام ٦١٢م، وكان يتيماً في المدينة، وتربى وكبر في كنف عبد الله بن رواحة رضي الله عنه.

وعلى الرغم من صغر سنه فقد أراد مع أسامة وعبد الله بن عمر الاشتراك في غزوة أحد. ولكن لم يُؤذن له بالمشاركة في المعركة لصغره سنه، حيث كان عمره عشرة أعوام. وكلفه النبي عليه الصلاة والسلام بحراسة من بقي في المدينة. واشترك زيد رضي الله عنه الذي لم يتمكن من الانضمام إلى جيش المسلمين يوم أحد في سبع عشرة غزوة. وخرج إلى غزوة مؤتة التي كانت في العام الثامن للهجرة وهو راكب خلف عبد الله بن رواحة رضي الله عنه. ويتحدث عن زيد رضي الله عنه عن واقعة جرت معه في تلك الرحلة، فيقول:

"كنت يتيماً لعبد الله بن رواحة في حجره، فخرج بي في سفره ذلك مردفي على حقيبة رحله، فو الله إنه ليسير ليلة إذ سمعته وهو ينشد أبياته هذه:

إذا أديتني وحملت رحلي
مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك أنعم وخلاك ذم
ولا أرجع إلى أهلي ورائي
وجاء المسلمون وغادروني
بأرض الشام مشتهى الثواء
وردك كل ذي نسب قريب
إلى الرحمن منقطع الإخاء
هنالك لا أبالي طلع بعل
ولا نخل أسافلها رواء

فلما سمعتهن منه بكيت. فخفقني بالدرة وقال: ما عليك يا لُكَع أن يرزقني الله شهادة، وترجع بين شعبتي الرحل؟" (محمد يوسف قندهلوي: حياة الصحابة، ٢، ١٤٤)

لقد كان زيد بن أرقم رضي الله عنه بغاية الصدق والإخلاص والحرص في مسألة عيش حياته بالمبادئ والقيم والفضائل الإسلامية. ويروي في هذه المسألة الحديث الآتي:

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

"من قال: لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة"

قيل: وما إخلاصها؟

قال عليه الصلاة والسلام:

"أن تحجزه عن محارم الله عز وجل". (الترغيب ٣/ ٧٤؛ محمد يوسف قندهلوي: حياة الصحابة، ٣/ ٣٢)

إن زيد بن أرقم رضي الله عنه هو الصحابي الذي ثبت فضله وأحقية موقفه بالوحي الإلهي، وهو جندي من جنود الإيمان الذي كان سبباً لنزول سورة المنافقين.

ففي غزوة بني المصطلق أو غزوة تبوك سمع زيد رضي الله عنه كلام رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول لأصحابه، وأعلم النبي عليه الصلاة والسلام بقوله عن طريق عمه. فنادى النبي عليه الصلاة والسلام في بادئ الأمر على زيد وسمع منه الخبر، ثم بعد ذلك أرسل في طلب عبد الله بن أبي بن سلول وسأله عما إن كان قد قال لأصحابه ما أخبره به زيد. فكذب ابن سلول الخبر وأقسم بأنه لم يقل ذلك، فصدقه النبي عليه الصلاة والسلام. وأخذ الناس يلومون زيداً الذي وقع ضحية لرأس النفاق، وبدا لهم كاذباً، فحزن زيد رضي الله كثيراً، وأمضى ليلة ثقيلة كثقل الجبال، وفي اليوم التالي نزلت الآيات التي تبين صدقه، وكذب المنافقين، وتؤكد بأنهم قد قالوا ما أخبر به زيد. إذ يقول الله تبارك وتعالى:

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ. يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(المنافقون: الآية، ٧- ٨)

وبناءً على ذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام لزيد:

"إن الله قد صدقك يا زيد!"، فسُرَّ رضي الله عنه.

ويروي زيد بن أرقم رضي الله عنه هذه الحادثة بنفسه، وهي كما جاءت في المصادر:

"عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله عليه الصلاة والسلام في سفر، أصاب الناس فيه شدة، فسمعت عبد الله بن أُبي يقول:

- لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

فذكرت ذلك لعمي أو لعمر، فذكره للنبي عليه الصلاة والسلام، فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذَّبني رسول الله عليه الصلاة والسلام وصدَّقه، فقال بعض الصحابة: كذب زيد رسول الله عليه الصلاة والسلام. فوقع في نفسي مما قالوه شدة. فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت حتى أنزل الله تصديقي: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ...﴾. ثم دعاهم النبي عليه الصلاة والسلام ليستغفر لهم، فلووا رؤوسهم." (البخاري: تفسير سورة المنافقون، ١؛ مسلم: صفات المنافقين، ١؛ رياض الصالحين: ترجمة وشرح، ج٦، ص ٦١٠)

يذكر هذا الحديث عدة أمور مهمة:

إن إخبار النبي عليه الصلاة والسلام بالمؤامرات والخطط التي يحيكها المنافقون ضد المسلمين لا يُعد غيبة أبداً. والنبي عليه الصلاة والسلام لم يؤنب زيداً بسبب فعله هذا. وإنما أراد فقط التحقق من وقوع الأمر، ولما أنكر المنافقون ذلك، وأقسموا عليه صدقهم الرسول عليه الصلاة والسلام، وعدَّ زيداً مخطئاً في المسألة.

وأما زيد رضي الله فقد أصابه حزن شديد لتعرضه لهذه الحالة من التكذيب. حتى إنه من شدة الحزن دخل خيمته، واعتزل الناس كما جاء في هذه الرواية وروايات أخرى.

وجاء في روايات أخرى أن النبي عليه الصلاة والسلام قد أشار إلى أن زيداً ربما قد توهم سماعه حديث عبد الله بن أبي والمنافقين معه، فتأثر زيد كثيراً بهذا القول.

لما نزلت السورة التي صدَّقت زيداً، وكذَّبت المنافقين، ونقلت الواقعة تماماً كما أخبر بها زيد رضي الله، أرسل رسول الله عليه الصلاة والسلام في طلب زيد ومسح بيده الشريفة على أذنه، وقال:

"وفى الله بأُذُنك يا غلام".

ولهذا السبب صار يُعرف ب "الذي صدق الله أذنه."

كان ذاك الفتى الصغير جندياً من جنود المحبة والإيمان، سلَّم نفسه لله ولرسوله منذ صغره. وصار من كتَّاب الوحي لأنه كان يجيد القراءة والكتابة. وتُعد الحادثة التالية أمراً عظيماً من ناحية إظهارها لمدى المحبة التي كان يكنها زيد في قلبه تجاه رسول الله عليه الصلاة والسلام وآل بيته:

لقد حضر زيد بن أرقم رضي الله عنه بنفسه حادثة كربلاء التي أدمت قلبه. إذ لما جيء برأس سيدنا الحسين رضي الله عنه الذي وصفه سيدنا محمد أفضل الصلوات وأتم التسليم ب"سيد شباب أهل الجنة"، إلى والي الكوفة والبصرة عبيد الله بن زياد كان زيد بن أرقم رضي الله عنه هناك.

ولما جعل عبيد الله بن زياد ينقر بقضيب في يده في شفتي الحسين وأسنانه، لم يتمالك زيد بن أرقم نفسه فاستشاط غضباً وصرخ بابن زياد قائلاً:

"ارفع قضيبك عن هاتين الشفتين فوالله الذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله عليه الصلاة والسلام عليها ما لا أُحصيه كثرة تقبلهما." ثمّ انتحب باكياً لهذا الغدر، والخيانة، والوحشية.

فغضب الوالي ابن زياد من كلامه، وقال له:

"والله لولا أنك شيخ كبير قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك."

لم يكن زيد رضي الله عنه ممن يأبه بهذه التهديدات الفارغة. لقد تعلم من النبي عليه الصلاة والسلام أن السكوت عن الظلم من الشيطان. وعندما همَّ بالانصراف أخذ يخاطب الحاضرين بقوله:

"يا معشر العرب، أنتم العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة وأمَّرتم ابن مرجانة (يقصد الوالي ابن زياد)، فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل، فبُعداً لمن رضي بالذل!"

كان زيد رضي الله عنه البطل الشجاع الذي لم يكن يسكت أمام الظالم، ولا يتحمل الظلم أبداً. لم يفارق النبي عليه الصلاة والسلام أبداً، وطبَّقَ كل ما تعلمه منه في حياته بكل صدق وإخلاص، وأمضى حياته بالتقوى والصلاح.